الفصل الأول

جيل ثورة ١٩١٩م

obeikandl.com

obeikandl.com

أستطيع أن أقول ـ على قدر علمى بالتاريخ العالمى ـ إن ثورتنا سنة ١٩١٩م على الاحتلال الإنجليزى لمصر ، كانت ثانى ثورة فى إفريقيا وآسيا على الاستعمار الأوربى .

الثورة الأولى كانت ثورة اليابان فى أوائل القرن العشرين ، وهى تختلف عن الثورة المصرية اختلافاً شاسعاً ، فإن ثورة اليابان لم تكن ثورة على احتلال فعلىّ قائم ، وإنما كانت ثورة على تدخل أجنبى أمريكى إنجليزى مهين . ثم إن اليابان كانت ـ إلى أواسط القرن الثامن عشر ـ بلداً مستقلاً ، لم يتعرض من قبل للاحتلال الأجنبى الذى يمتص خيرات البلاد وينال من العزة القومية ، وكان يقودها إمبراطور إقطاعى هو الشوجان ، وأمراء إقطاعيون كلهم من رجال الحرب المعروفين بالساموراى ، أضف إلى ذلك أن بلاد اليابان ذات طبيعة جبلية وعرة ، وجوّها شديد قاسٍ على الأجنبى وجزائرها كثيرة ، ومن ثم فإن المطامع الأوربية والأمريكية لم تتمكن من تنفيذ مآربها هناك ، وإنما ظلت تطرق الباب دون نجاح كبير . وأتيح لأهل اليابان ـ فى أثناء ذلك ـ أن يعيدوا تنظيم بلادهم ، وينشئوا حكومة حديثة وجيشاً نظامياً كفيلاً بحماية البلاد . فلمّا حاول الأمريكيون التوغل فى اليابان وجدوا الأمر عسيراً عليهم كل العسر ، ومن ثم سارت ثورة اليابان السياسية والدستورية والعسكرية والعلمية فى طريقها دون عقبات تذكر . وفى أوائل القرن العشرين كانت اليابان قد أعدّت نفسها لمواجهة المطامع الغربية ، بل استطاعت الانتصار على روسيا سنة ١٩٠٤ م ، وقفز بها هذا النصر إلى مصاف الأمم الكبرى.

أما ثورتنا سنة ١٩١٩م ، فقد قامت فى بلد أنهكته من قرون طويلة موجات من العدوان والاستغلال الخارجى ، جعلت الناس يتصورون أن شعب مصر قد نام نومة الأبد ، وإذا قرأنا ما كتبه لورد كرومر فى كتابه المخجل عن « مصر الحديثة » وجدنا ذلك الاستعمارىّ القارح يكتب عن شعب مصر وكأنه شعب من شعوب العصور الغابرة ، لا أمل فى نهوضه إلا بالقدر الذى يسمح به كرم الإنجليز .

ولكن شعب مصر هذا هو الذى عصف بكرومر نفسه عندما تيسرت له السبل ، وبعد سنوات قلائل ، وعندما خرجت بريطانيا منتصرة من الحرب العالمية الأولى ،

ورجالها يشعرون ويتصرفون وكأنهم سادة الأرض ، نهضت مصر نهضة ما كان يتوقعها أحد ، وقامت بثورتها فى وجه المستعمر الذى كان يحسب نفسه لا يُقهر ، وما أسرع ما وجدت انجلترا نفسها أمام شعب ذى قوة وعزم ، يرفضها رفضاً ويصر على طردها من بلاده طرداً ، ويؤكد للدنيا أن وجود بريطانيا فى مصر ، وأن الاستعمار الأوربى كله ـ تبعاً لذلك ـ نكبة لابد أن تزول ، حتى تستطيع شعوب العالم أن تسير فى طريق التقدم .

وقاد الثورة سعد زغلول ، ذلك الفلاَّح الذى خرج إلى الدنيا من قرية خافية فى بطن الريف هى إبيانة (مركز فوة بمديرية الغربية إذ ذاك ـ محافظة كفر الشيخ اليوم) ، ووقفَ من فطاحل السياسة البريطانية موقف الندّ للند ، وأثبت للعالم أن مصر استيقظت وعقدت العزم على أن تستعيد مكانها بين الأمم . وبدأت معركة التحرير المريرة لا مع بريطانيا فحسب ، بل مع أوربا والغرب كله ، فسيرى القارئ فيما يلى من الصفحات أن أوربا كلها ـ لا بريطانيا فحسب ـ كانت تحتل مصر وتتعاون على خنق صوت الحرية فى صدرها ..

تلك هى أهمية ثورة سنة ١٩١٩م فى مصر ، فقد استنقذت من عالم الضياع شعباً من أعرق شعوب الأرض هو شعب مصر ، وكان نجاح مصر فى ثورتها بداية ثورة آسيا ثم إفريقيا على السيادة الغربية ، أى أنها كانت ـ فى الحقيقة ـ فتحاً لعصر جديد فى تاريخ الإنسانية كلها.

ثورة ١٩١٩م
ميلاد مصر من جديد

كيف نعرف الوزن الصحيح لثورة ١٩١٩م ؟

فى محاولة صادقة ، وساذجة أيضاً ، لتقدير ثورة سنة ١٩١٩م ودورها فى تاريخ مصر العام ، قال عبد الرحمن الرافعى ـ مؤرخ الحركة القومية المصرية ـ فى نهاية الجزء الثانى من كتابة القيِّم عن هذه الثورة (٢/ ٢٤١):«...فأول قاعدة يصح أن نتخذها أساساً للبحث فى مبلغ نجاح أية ثورة أو عدم نجاحها ، هى تعرُّف الحالة التى كانت عليها البلاد قبل الثورة ، والحالة التى وصلت إليها بعد الثورة ، وهل تقدمت أو تأخرت ، وما علاقة الثورة بهذا التقدم أو التأخر ..» .

وهذا مذهب سليم ، وعلمى إلى حد كبير ، يمكن أن نطمئن إليه فى تقدير الحوادث التاريخية وتقييم أعمال الرجال ؛ فإذا أردت أن تعرف القيمة الحقيقية لأى حدث من أحداث التاريخ ، فافترض أنه لم يحدث ، ثم تصوَّر مسيرة التاريخ بدونه ، وقارن بين الحالتين ؛ يتضح لك قدر هذا الحدث وأهميته بصورة قريبة جداً من الصحة .

خذ مثلين معروفين :

يحدِّثونك فى تاريخ مصر بشىء يحسبونه مهماً يسمى بالدولة الطولونية ، أنشأها مغامر عسكرى تركى الأصل عربى الثقافة هو أحمد بن طولون ، حكم مصر ١٥ سنة (٨٦٨ ـ ٨٨٣هـ) وخلفه أربعة من أبنائه وأحفاده حكموا مصر إلى سنة ٩٠٥ هـ ، فاستمر عمر الدولة كلها سبعاً وثلاثين سنة..

وهم يقولون لك إن هذه الدولة بدأت فى تاريخ مصر عصراً جديداً ، وأنها افتتحت عصور الاستقلال والحياة القومية ، وما إلى هذا القول الذى يثقلون به كتب التاريخ ..

ولكنك إذا سألت : ماذا كانت مصر قبل أحمد بن طولون ؟

لكان الجواب : ولاية عباسية ..

ـ وماذا كان حالها بعد دولة آل طولون ؟

ـ أيضاً ، ولاية عباسية ..

ـ وماذا كان حال مصر قبلهم ؟

ـ بؤساً وشقاء ..

ـ وبعدهم ؟

ـ أيضًا ، بؤسًا وشقاء ..

ـ وفى أيامهم؟

ـ بؤساً أكبر ، وشقاء أشد ..

ـ إذن ؛ فما هو دور أحمد بن طولون فى تاريخ مصر ؟

ـ لا دور ..

قلها وأنت مطمئن ..

ـ وما أهمية الدولة الطولونية كلها فى تاريخ مصر العام ؟

ـ أيضاً ، لا أهمية ..

تستطيع أن تقرأ تاريخ مصر دون أن تذكر آل طولون ؛ فلا تلاحظ أنك فقدت شيئاً .

خذ مثلاً آخر :

فى سنة ١٨٩٩م نشر قاضٍ ومفكر مصرى ـ هو قاسم أمين ـ كتاباً صغيراً عنوانه « تحرير المرأة » ..

ولم يكن قاسم أمين بالثائر العنيف ولا بالمتمرد على النظام العام ، وإنما كان رجلاً هادئاً دمث الخلق مستقيماً ، ومصرياً صادقًا واسع الثقافة عاطفياً ، عاش حياته القصيرة (١٨٦٥ـ ١٩٠٨م) كما عاش أى قاضٍ نزيه آخر فى أيامه . ولكنَّ «قاسماً» كان ينطوى فى نفسه الهادئة على بحر متلاطم الأمواج من العواطف من كل نوع ، فقد كان واحداً من جيل الوطنيين العاطفيين الذين عشقوا مصر عشقاً ملك عليهم نفوسهم .. كان قلبه يزخر بحب مصر وحب امرأة أخرى لا يعلم أحد من أمرها شيئاً ، حتى قيل عندما توفى فجأة سنة ١٩٠٨م إنه انتحر..

هذا الكتاب الصغير الذى نشره هذا القاضى المتوقد الذهن سنة ١٨٩٩م ، أثار فى مصر وبلاد الإسلام كلها ثورة كبرى ، مزقت حجب الظلام والظلم التى نشرها مجتمع متدهور على نساء المسلمين جميعاً قروناً طويلة ، فحرمهن من كل حقوق البشر وجعلهن جميعاً فى مراتب الخادمات أو الغانيات ، ولا مكان لهن خارج هذا النطاق..

هذا الكتاب الصغير هاجم حجاب المرأة وظُلم المرأة وهوان المرأة ، وطالب لها بحقها فى العدل والكرامة والعزة ، وأظهر للمسلمين مقدار جريمتهم فى حق مجتمعهم وأمتهم ودينهم ، بما كانوا يتمسكون به من قهر النساء ظلماً وعدواناً ، مخالفين لما يقرره الدين الحنيف..

أثار الكتاب عاصفة كبرى هزت شجرة الحياة المصرية هزاً عنيفاً ، فتساقط منها ورق كثير كان قد مات وجفَّ من زمن طويل. وما إن تساقط هذا الورق حتى أخرجت شجرة الحياة المصرية ـ والعربية بالتالى ـ ورقاً جديداً ، ثم زهراً يانعاً ، تغيَّر معه منظر تلك الشجرة تغيُّراً حاسماً ..

وبعد قليل أخرج قاسم أمين كتابه الثانى «المرأة الجديدة» فقضى به على كل أمل كان الرجعيُّون يتمسكون به للحَجْر على نصف الأمة الإسلامية ، باسم الشرف الوهمى والتقاليد التى كانت قد تساقطت مع ما سقط من أوراق الشجرة العتيقة..

وخرجت نساء مصر إلى الحياة العامة فى استبشار وأمل ، وسرن فى الطريق بقدم ثابتة ، ولم يجرؤ أحد من المعارضين بعد ذلك على الوقوف فى طريق الحياة الذى شقَّه قاسم أمين ..

وعندما توفى قاسم أمين سنة ١٩٠٨م كان منظر المجتمع المصرى يختلف كل الاختلاف عن منظره قبله : دبَّت فيه قوة جديدة ، وسرت فيه روح شابة وليدة ..

صارت مصر بعد قاسم أمين غير ما كانت قبله ..

وهذه المقارنة تعطيك الوزن الصحيح لقاسم أمين ، كما أعطتك المقارنة الأولى الوزن الصحيح لأحمد بن طولون ودولته الذائعة الصيت .

هذا المقياس السليم تستطيع الاعتماد عليه فى تقدير ثورة ١٩١٩م وجيلها ، ومقامها ومقامهم فى تاريخ هذا البلد العزيز ..

• من عالم الضعف والذل واليأس إلى عالم القوة والعزة والأمل :

لا شك فى أن مصر وعالم العرب كانا قبل سنة ١٩١٩م يختلفان كل الاختلاف عن مصر وعالم العرب بعدها ..

قبل ١٩١٩م كان الاستعمار والذل والاستسلام ، والمحاولات الضعيفة للخروج من قبضة اليأس المحتوم كالقدر ..

وبعد ١٩١٩م يبدأ السير الحثيث الواعى فى طريق النهوض والأمل ، ويجرؤ الناس على الاحتلال بعد أن تحدَّوه فى قوة ، وتعرَّضوا لرصاصه وسجونه ونفيه ، فلم يرهبهم الرصاص ولا السجون ولا النفى ، وهان فى نظرهم السلطان ورجاله بعد أن تبينوا أنهم ليسوا إلا عبيداً للاستعمار وأدواته ..

والذى حدث أن ثلاثة من أهل مصر توجهوا إلى دار « المعتمد البريطانى » السير ريجينالد وينجيت Sir Reginald Wingate فى صباح ١٣ نوفمبر ١٩١٨م ، وقالوا له إن الأوان قد آن للبحث فى مصير مصر ، وإنهم يضعون المسألة أمامه لأنهم أبناء مصر ومصيرها مسئوليتهم ..

وفهم الرجل أنهم يطلبون الاستقلال لوطنهم ، وأنهم يريدون أن يسافروا إلى أوربا لعرض قضية بلادهم على مؤتمرات الصلح ، التى كان الاستعداد لها يجرى على قدم وساق.

وكان يرى أن مصير مصر مسألة الإمبراطورية البريطانية وحدها ، فهى بلد تحت الحماية الإنجليزية ، أى : جزء من أملاكها وأراضيها ..

ولهذا رفض السماح لهم بالسفر ، وقال إنه ليس لهم الحق فى الكلام باسم مصر ، فما هم إلا ثلاثة من أعضاء الجمعية التشريعية المعطَّلة ..

فسارع الثلاثة إلى أخذ توكيل من الشعب ليتكلموا باسمه ، وسارع الشعب فأعطاهم التوكيل بالإجماع ، واعتبرهم « وفداً » موكلاً منه للكلام باسمه والمطالبة بحريته .

وفى حفل أقامه حمد الباسل فى ١٣ يناير سنة ١٩١٩م خطب سعد زغلول رئيس

ذلك الوفد خطابه التاريخى الأول ، الذى قرر فيه حق مصر فى الاستقلال الكامل ، وتصميم الأمة كلها على الحصول على ذلك الاستقلال .

وفى خطابه الثانى فى قاعة جمعية الاقتصاد والتشريع فى ٧ فبراير١٩١٩م أعلن سعد بطلان الحماية بطلاناً تاماً ، وقرر أن الشعب يرفضها ويطلب الاستقلال ، وأنه وزملاءه موكلون من الشعب للسعى فى تحقيق هذا المطلب العزيز .

وفى ٢ مارس ١٩١٩م كتب الوفد إلى « السلطان فؤاد » يطلب إليه أن يؤيد شعبه ، فتخلَّى السلطان فؤاد عن شعبه .

وفى ٦ مارس ١٩١٩م تلقَّى الوفد إنذاراً من المعتمد البريطانى يطلب إلى رجاله أن يكفُّوا عن سعيهم للاستقلال .

وفى ٨ مارس اعتقل الإنجليز سعداً وثلاثة من صحبه وأخذوهم إلى ثكنات قصر النيل ، وفى اليوم التالى أرسلوهم منفيين إلى « مالطة » .

وما إن علم الشعب باعتقال رجاله حتى انفجر بركان الثورة فى ٩ مارس ١٩١٩م.

فريقاً بعد فريق ، خرج أهل مصر يتحدَّون الإنجليز ، غير مبالين بالضرب والاعتقال والسجن ، ولا بالموت .. وسقط منهم الألوف شهداء وهم يهتفون لمصر ..

لقد قدَّر عبد الرحمن الرافعى شهداء الثورة المصرية بنحو ثلاثة آلاف ، غير ألوف أخرى أكثر جُرحوا وسُجنوا وعُذِّبوا ..

وكان هؤلاء الشهداء من كل نواحى مصر : من بورسعيد ودمياط والإسكندرية إلى أسوان ، من مدنها وقراها ، من طلابها وموظفيها وعمالها ومزارعيها ، رجالها ونسائها..

وتبيَّن الإنجليز أن سلاحهم الوحيد ـ وهو القوة ـ لم يعد ينفع ، فتأكدوا أنهم أمام شعب عنيد يأبى أن يتراجع ..

وبدأ الإنجليز فى التراجع .. فأفرجوا عن سعد وأصحابه المنفيين فى مالطة يوم ٧ أبريل ١٩١٩ م .

وكان هذا أول نصر حقيقى كسبه المصريون بدمائهم ..

لقد خطوا الخطوة الأولى فى طريق الاستقلال ..

وبدأ الكفاح المرير فى سبيل الحرية .. كفاح شاق حافل بالتضحيات ، ولكنه كفاح رجال يشحذ الهمم ويقوِّى النفوس ويزيد العيون بصراً والقلوب وعياً..

وهذه هى أهمية ثورة ١٩١٩م ، وذلك هو دورها فى تاريخنا ..

فقبل ثورة ١٩١٩م ، كانت مصر وأمة العرب تسيران سيراً بطيئاً هادئاً نحو الموت .. وبعد ثورة ١٩١٩م ، انفتح أمام مصر ـ ثم أمة العرب ـ طريق الحياة ، وهو طريق طويل عسير ، حافل بالنكبات والمآسى ، ولكنها مآسٍ ونكبات على طريق السلامة : مآسٍ تنفع وتعلِّم ، وإن كانت تؤلم وتعطِّل المسير ..

قبل ١٩١٩م كنا نجاهد لكى نُوجَد ..

كانت انجلترا ـ صاحبة السيادة على بلادنا ـ تقول إننا غير موجودين ..

منذ الاحتلال البريطانى فى سبتمبر ١٨٨٢م ، كانت مشكلة المعتمدين البريطانيين[١] هى : كيف يمكن الاحتفاظ بمصر بدون المصريين؟!

بعد موت مصطفى كامل سنة ١٩٠٨م ، وخروج محمد فريد من مصر ، واضطراره إلى حياة النفى فى أوربا بعيداً عن وطنه ؛ عقاباً له على حبه إيَّاه ، خُيِّلَ إلى الإنجليز أنهم نجحوا أخيراً فى إخراج المصريين من الميدان ، حتى كان يوم ١٣ نوفمبر١٩١٨م والحديث التاريخى الذى دار بين ممثلى مصر وممثل الاحتلال فى البلاد.

لقد كانت دهشة « وينجيت » كبيرة وهو يصغى إلى سعد زغلول وعبد العزيز فهمى وعلى شعراوى وهم يتحدثون إليه عن مصر وحقوقها..

وتستوقف النظر فى ذلك الحديث السطور التالية :

على شعراوى : إننا نريد أن نكون أصدقاء للإنجليز صداقة الحر للحر ، لا صداقة العبد للحر..

---

(١) هم على التوالى : الجنرال جارنت وولزلى ، ثم السير إيفلين بيرنج (لورد كرومر) ، ثم الجنرال إلدون جورست ، ثم الجنرال هوراتشيو هربرت كتشنر ، ثم الجنرال جون ج. ماكسويل ، ثم المستر ميلن تشيتام ، ثم الجنرال هنرى مكماهون ، ثم الجنرال السير ريجينالد وينجيت ، ثم الجنرال إدموند هنرى هاينمان أللنبى.

وينجيت : إذن ؛ فأنتم تطلبون الاستقلال ؟!

سعد : ونحن أهل له ، وماذا ينقصنا ليكون لنا استقلال مثل باقى الأمم المستقلة ؟..

وينجيت: ولكن الطفل إذا أُعطى من الغذاء أزيد مما يلزمه أُصيب بالتخمة !

هنا ـ فى هذه السطور القليلة من الحوار ـ نرى الفرق الهائل بين مصر كما كان يريدها الإنجليز ، ومصر كما أرادها أهلها..

هذه السطور تعيِّن لنا نقطة النهاية لقرون طويلة من ضياع مصر والمصريين ، ونقطة البداية لوجودها ووجودهم..

إنها تعيِّن ميلاد مصر من جديد..

ولكن ، ما هى ثورة ١٩١٩م ؟

فى المؤلفات الإنجليزية التى كتبت من أيام الاحتلال إلى يومنا هذا ، يحاذرون أن يستعملوا كلمة ثورة Revolution فى وصفها..

يقولون إنها هياج (أو هوجة) Agitation ، أو قلاقلDisturbances ، أو تمرد Mutiny ، أو عصيان Rebellion ، أو ثورة Revolt ، أو أعمال عنف Acts of Violence.

وقد يستعملون لفظى تظاهرات Demonstrations ، أو إضرابات Strikes ، ولكن لا يستعملون لفظ « ثورة»..

هذا اللفظ يستعملونه فقط عند التحدث عن ثورات الحرية الغربية ، كالثورة الفرنسية وثورة اليونان على تركيا..

حتى المؤرخ اليونانى الأصل« فاثكيوتس» الأستاذ اليوم بجامعة لندن ، يستعير لغة السادة الإنجليز ، فلا يتنازل باستعمال لفظ« ثورة » للتعبير عن قيام الشعب المصرى على الإنجليز سنة ١٩١٩م ، ولكنه يستعمله فى الكلام عن ثورة يوليو١٩٥٢م ، لأنها لم تكن ـ فى رأيه ـ ثورة على الإنجليز أو العرب ، بل ثورة مصريين على مصريين..

والحقيقة أن ثورة ١٩١٩م ثورة حقيقية من ثورات الحرية ، قام بها أهل مصر ـ فى جرأة وقوة ، وعن إيمان ـ فى وجه دولة مستعمرة غاصبة ، وكان هدفهم تحرير بلادهم

وطرد المستعمر منها وإنقاذ أمتهم من الضياع ..

وقد قاموا بها فى وقت لم تكن هناك أمة فى إفريقيا وآسيا لتجرؤ على أن تناقش الإنجليز مجرد مناقشة ، بل كان رجال الحكم فى مصر يحمدون الله على حماية الإنجليز لبلادهم ..

وعندما ألقى سعد زغلول خطابه المشهور فى قاعة جمعية التشريع والاقتصاد فى ٧ فبراير ١٩١٩م وقال كلمته المشهورة : « فى سنة ١٩١٤م أعلنت بريطانيا حمايتها على مصر من تلقاء نفسها ، بدون أن تطلبها الأمة أو تقبلها ، فهى حماية باطلة لا وجود لها قانوناً ، بل هى ضرورة تنتهى بنهاية الحرب ولا يمكن أن تبقى بعدها دقيقة واحدة» ـ عندما تحدى سعد القوة البريطانية بهذه الصراحة ؛ رِيعَ السلطان فؤاد روعاً شديداً ، وأصيب الإنجليز بما يشبه الذهول . وفى هذه اللحظة بالذات خرجت الأمة المصرية من غفلة القرون الماضية إلى وعى الحاضر ووضوح رؤية المستقبل..

ووصل هذا النداء إلى قلب كل مصرى ، حتى سمعه الفلَّاحون فى بطون القرى ، فنهضت مصر كلها ـ أمة عزلاء من السلاح ، قوية بالحق ـ فأعلنت نهاية الاحتلال البريطانى..

وبالفعل ، لم يعد الاحتلال إلى قوته وهدوئه واطمئنانه بعد ذلك أبدًا..

ولقد تعثرت الأمة المصرية بعد ذلك كثيراً فى الطريق ، وأصيبت بنكسات أليمة ، ولكنها لم تعد إلى الوراء أبدًا.

وبينما كنا فى نوفمبر ١٩١٩م نسعى إلى مجرد إسماع صوتنا ، أصبحنا فى فبراير ١٩٢٢م نرفض تصريحاً إنجليزياً يعطينا استقلالاً مشروطاً بتحفظات..

وبينما طرب لذلك التصريح السلطان فؤاد ، وأسرع فجعل نفسه ملكاً صاحب جلالة ، وتقدَّم يزفُّ البشرى بذلك إلى الأمة ، كانت الأمة ترفض الاستقلال الزائف ، وترفض الملك وترفض جلالته أيضاً ، وتقرر أنها ستواصل السير ؛ لأنها لم تصل إلى هدفها الحقيقى وهو الاستقلال التام .

ولا تقف أهمية تلك الثورة عند التغيير النفسى الهائل الذى أدخلته على روح هذا الشعب ، ونقلها إيَّاه من الضعف والهزيمة والاستسلام إلى القوة والإيمان بالنصر

والتحدى ، بل إنها أطلقت القوة الكامنة فى نفوس الشعب ، فظهر ـ فى كل ميدان تقريباً ـ رجال عباقرة جددوا حياة مصر ، وفتحوا أمام شعبها آفاق العمل والإنشاء واسعاً عريضاً .

مثلها فى ذلك مثل كل الثورات الكبرى : الفرنسية والأمريكية والروسية وغيرها.

هذه الثورات كلها كانت معارك حياة ، وكما بدأت كل ثورة منها عصرًا جديداً فى تاريخ الإنسانية ، فكذلك ثورة ١٩١٩م بدأت فى تاريخ الأمة العربية والقارة الإفريقية عصراً جديداً ..

فعلى هدير ثورة مصر أفاقت الأمة العربية ، وعرفت اتجاهها الصحيح بعد دوران طويل فى الفراغ ..

• الثورة المصرية والثورة العربية:

ولكى تتضح هذه النقطة أمامنا ، نقف هنيهة لنقارنها بالثورة العربية التى سبقتها بقليل .

وأعتقد أنه يجـدر بنا ـ فى هذه المناسبة ـ أن نلقى نظرة سريعة على تلك الثورة العربية ، التى تلاقت مع ثورتنا على طريق النضال.

الثورة العربية ولدت ـ أول الأمر ـ كحركة فكرية ، ثم تحولت ـ فى أثناء الطريق ـ إلى حركة سياسية ، بعيدة تماماً عن معنى الثورة الشعبية الشاملة.

ولدت هذه الثورة فى صورة نهضة فكرية فيما بين سنتى ١٨٣٠ و ١٨٤٠م ، أى : فى أثناء الحكم المصرى للشام . صاحب الفضل فيها هو إبراهيم بن محمد على فاتح الشام وحاكمه خلال هذه الفترة . لقد تحوَّل هذا التركى إلى مصرى عربى وهو يعمل مع جنوده المصريين فى مصر ، وعمل دائماً على تشجيع المصريين على النهوض والحلول محل الأتراك فى قيادة الدولة المصرية الناشئة. عندما بدأ العمل فى الشام ، طافت بذهنه فكرة إنشاء دولة عربية تحل محل الدولة العثمانية.

اتبع إبراهيم فى الشام سياسة حرة ، ووضع حداً لعسف الأتراك بعرب الشام ، فأنشأ فيه المدارس وفتح أبوابه للمدارس الأجنبية ، فبدأ العلم الحديث يدخل أرض الشام ، كما دخل أرض مصر قبل ذلك بسنوات .

وعندما أُرغمت مصر على التخلى عن الشام وعاد إبراهيم إلى مصر سنة ١٨٤١م ، لم يعد الشام ولاية تركية كما كان الحال قبلاً. بدأت قصة اليقظة العربية ثم النهضة والحركات الفكرية ودعوات التحرر ، وظهرت عبقريات بطرس البستانى وإبراهيم اليازجى وأضرابهما من رواد اليقظة الفكرية العربية فى ربوع الشام.

وبعد ذلك سارت الحركة فى طريقها ـ فى بطء ـ بقية القرن التاسع عشر ، متخطية عقبات بعد عقبات.

وتولى السلطان عبد الحميد عرش آل عثمان سنة ١٨٧٦م ، وبدأ عصره الحافل بالتطورات فى كل بلاد الإمبراطورية ، بما فى ذلك العربية منها. ولكن هذا المستبد الشرير ـ الذى لم يَخْلُ من عبقرية ـ دفع بحركة النهوض العربى دفعة قوية إلى الأمام ، فسياسته العربية الإسلامية التى انتهجها من سنة ١٨٧٨م ، فتحت أمام العرب ميدان العمل السياسى بعد أن كان محرَّماً عليهم . وسواء أفعل عبد الحميد ذلك عن حسن نية أم عن سوء طوية ، فقد أصبح من العرب وزراء وحكام ومشيرون . وارتفعت اللغة العربية ـ للمرة الأولى ـ إلى مستوى اللغة التركية فى الأعمال الرسمية للدولة . وعندما عُزل فى سنة ١٩٠٨م كانت حركة العروبة قد أصبحت حقيقة واقعة : كان العرب قد وضعوا أقدامهم على سلم التحرر ، وأصبحوا شركاء لآل عثمان فى السلطان .

ومن أسف أن العرب ورجال الاتحاد والترقِّى لم يفهم أحد منهما الآخر ، ووقع الخلاف وسوءُ الظن بين الجانبين ، ربما نتيجة لدسائس يهود سالونيك ـ وكان تأثيرهم على رجال الاتحاد والترقِّى عظيماً ـ وليس مصادفة أن هذه الحركة ولدت فى «سالونيك» . .

ووقع الصراع العنيف بين الترك الجدد والعرب الجدد ، ثم قامت الحرب العالمية الأولى ، وأدرك رجال تركيا أنهم بحاجة إلى عون العرب ..

وكان من الممكن أن تكسب الحركة العربية لنفسها كسباً مؤكداً من ظروف الحرب وما قبلها ، لو لم تظهر جماعة المغامرين الطامعين ، الذين كسروا مسيرة الحركة العربية وأرادوا تحويلها إلى مؤامرة لوضع الحسين بن على «شريف مكة» وأولاده على عرش يؤيده الإنجليز . ولقد أيدهم ـ مع الأسف ـ نفر من قادة العرب ، ما بين مخدوعين وطامعين..

هنا نجد الحركة تتحول من حركة أمة عربية إلى حركة أسرة : رجل وأولاده أرادوا أن ينشئوا لأنفسهم عرشاً ـ أو عروشاً ـ وصمموا على أن يستخدموا جهود العرب ـ جميعاً ـ فى تحقيق هذا الهدف الأنانى ، الذى لا يكسب العرب من ورائه شيئاً.

وبينما نجد الذين نهضوا للكلام باسم مصر أبناء فلاحين من صميم الريف .. نجد الذين اغتصبوا الحركة العربية ووجّهوها لخدمة مصالحهم أسرة طامحة من عرب الحجاز ، هم (الحسين بن على وأولاده) ..

وبينما كان سعد وأصحابه يطالبون لأمتهم بوطنها .. كان الحسين بن على يطالب بعرش لنفسه ..

وبينما لجأ سعد وأصحابه إلى الحصول على توكيل رسمى من الأمة المصرية للتحدث باسمها فى طلب الاستقلال .. نجد الحسين بن على يسعى للتفاهم مع الجنرال السير هنرى مكماهون المعتمد البريطانى فى مصر لكى تنصّبه بريطانيا حاكماً على العرب..

وبينما كان سعد وأصحابه رجال جد وعزم وعقل وعلم وإيمان .. نجد الحسين بن على وأولاده ـ ربما باستثناء فيصل ـ رجال مكر ومناورة وجلافة وذكاء فطرى ، يذكّرنا بجبابرة حكامنا فى العصور الوسطى ، الذين هَوَوْا بنا إلى درك سحيق..

لهذا كان من الطبيعى أن يخدعهم الإنجليز والفرنسيون ، ومن المؤكد أن معاهدة «سايكس ـ بيكو» السرية ما كانت لتعقد لو أن المتحدثين باسم العرب فى ذلك الحين كانوا ممثلين صادقين للأمة العربية ، لا أفراد أسرة من المغامرين كانوا يسعون لإنشاء ملك خاص لهم على حساب إخوانهم فى الدين .

ومن الغريب أن الحسين بن على وابنه عبد الله كانا فى غاية التشدد وسوء الظن مع الأتراك ، وأما مع الإنجليز فكانا ـ وكل رجالهما ـ يثقون فيهم ثقة لا حد لها [1] ،

---

(١) انظر التقرير السرى الذى كتبه السير مارك سايكس فى القاهرة فى ١٤ يوليو ١٩١٥م ، وتحدث فيه عن مشروعات تقسيم الأملاك العثمانية فى آسيا وعن آراء بعض زعماء العرب فى القاهرة . نشره لأول مرة د. مكى شبيكة فى كتابه القيم « العرب والسياسة البريطانية فى الحرب العالمية الأولى » ـ بيروت ١٩٧٠م ص١٣٢ وما بعدها ؛ وانظر ـ بصفة خاصة ـ الفصل الذى عنوانه « اتصالات بريطانيا مع العرب » ـ ص ٥٦ وما يليها.

وتركوا لهم ـ يا للعجب ! ـ أمر وضع حدود الدولة العربية التى ظنوا أن الإنجليز سينشئونها ويرفعونهما على عرشها..

ثم كان الانقلاب الدموى على الأتراك فى أثناء الحرب.. يوم وقع هذا الانقلاب فى العاشر من يونيو ١٩١٨م ، وهاجم الشريف حسين ورجاله الحامية التركية فى مكة مستعينين بأسلحة ومدافع إنجليزية ، تَقرَّر مصير الخلافة العثمانية وقُضى على آمال العرب بالضياع..

نعم .. وعندما وقفت قوات فيصل بن الحسين بن على إلى جانب قوات الجنرال أللنبى ضد الأتراك ؛ ضاعت فلسطين.. لقد ظن فيصل أنه كسب عرشاً عندما دخل دمشق وأعلن نفسه ملكاً عليها فى أول أكتوبر ١٩١٨م ، ولكنه نسى أن عمله هذا أدى إلى هلاك ٣٥٠٠٠ جندى وضابط تركى ، هلكوا فى الفيافى الممتدة من المدينة إلى دمشق عطشاً وجوعاً وتخطَّفهم البدو ، ونتيجة لهذا تمكَّن الجنرال أللنبى من دخول القدس دخول الظافرين ، وبينما كان الشريف حسين وأبناوه يحكمون على إخوانهم فى الدين بالموت ؛ كان الجنرال أللنبى يعلن فى القدس: « اليوم انتهت الحروب الصليبية ! ».

عقب دخول أللنبى القدس وصلت أول بعثة صهيونية إلى أرض فلسطين ، للشروع فى تنفيذ «وعد بلفور» الذى كان قد صدر فى ٢ سبتمبر ١٩١٧م ، كان القائم بالعمل فى القدس ضابطاً شاباً (يومئذ) هو رونالد ستورز . وصل حاييم وايزمان إلى القدس وأخذ يلقى الأوامر إلى رونالدً ستورز ، ولـمَّا احتج رونالد عزلته بريطانيا وأقامت فى القدس أول معتمد لها : اليهودى الصهيونى هربرت صمويل ، وبدأت عملية تسليم فلسطين لليهود..

هل بالغنا عندما قلنا إن فلسطين ضاعت يوم انقلب الشريف حسين على الأتراك فى العاشر من يونيو ١٩١٨م ؟

وهكذا ، لكى يكسب عرشاً فى دمشق ضاعت فلسطين..

وليت العرش دام !

أىُّ مأساة !

على خلاف ذلك : لقد نبعت الثورة المصرية من صميم مصر ، وسارت فى خط محمد عبده الفلَّاح المصرى الأصيل. لم تتحول عن ذلك الخط أبداً . حاول عباس

حلمى أن يستغلها لحسابه ، واجتهد فى خداع مصطفى كامل ، ولكن مصطفى كامل لم ينخدع ، أما الشيخ على يوسف فانخدع وانتهى دوره فى القضية المصرية . ثم صبت هذه الثورة ـ آخر الأمر ـ فى أرض مصر ، فكانت ثورة ١٩١٩م وجيلها الذى نهض بمصر وعالم العرب بعد ذلك نهضة كبرى.

أما الثورة العربية فقد نبعت من صميم العرب ، ولكنَّ مغامرى الحجاز اغتصبوها وحالفوا الإنجليز وانقلبوا على إخوانهم المسلمين فى وسط المعركة ، فضاع أمرهم ولم تصبَّ ثورتهم فى أرض العرب ، بل فى تيار الإمبراطورية البريطانية وحليفتها الصهيونية..

وكل مصائب العالم العربى بعد الحرب الكبرى ، نشأت عند ذلك الاغتصاب الذى كسر مسيرة الحركة العربية كسراً لم تلتئم بعده ..

لقد واصل سعد ومن معه عمل عرابى ومحمود سامى البارودى ومصطفى كامل ومحمد فريد ومحمد عبده .. ولم يواصل مغامرو الحجاز عمل عبد الرحمن الكواكبى أو غيره من مفكرى النهضة العربية .. ولهذا كانت ثورة ١٩١٩م دفعة إلى الأمام ، أما الثورة العربية التى قادها شريف مكة فقد كانت نكسة قاسية إلى الوراء .

لقد قال سعد زغلول فى خطبة ألقاها فى ١٩ سبتمبر ١٩٢٣م : « لست خالق هذه النهضة كما قال بعض خطبائكم.. لا أقول ذلك ، ولا أدَّعيه ، بل لا أتصوره.. إنما نهضتكم قديمة ، تبتدئ من عهد مؤسس الأسرة المالكة محمد على ، وللحركة العرابية فضل عظيم فيها ، وكذلك للسيد جمال الدين الأفغانى وأتباعه وتلاميذه أثر كبير ، وللمرحوم مصطفى كامل باشا فضل غزير فيها أيضاً ، وكذلك للمرحوم محمد فريد بك».

• خط واحد مستقيم

قارن بهذا الكلام ذلك الانكسار المحزن الذى صادفته الثورة العربية عندما اغتصبها وانحرف بها مغامر الحجاز وأولاده ، ومن انخدع بهم مثل رشيد رضا . لقد كتب السير هنرى مكماهون المعتمد البريطانى فى مصر ملاحظات دوَّنها فى مذكرة سرية حرَّرها سنة ١٩١٥م ونشرها الدكتور مكى شبيكة فى كتابه الآنف الذكر(ص٢٢٧) ، وفى هذه المذكرة تقرأ العبارة التالية : «.. ويشير الشريف ـ بتحديد ووضوح أكثر مما ورد فى

رسائله السابقة ـ إلى موضوع الخلافة ، وأنه هو أحق بها من غيره ، ولكنه يود أن يركِّز سلطته الزمنية قبل أن يدعى للخلافة ، ويذكر مرة أخرى أنه سيسعى لمنع مهدى السودان من الاستمرار فى التمرد على بريطانيا»..

أىُّ خادع مخدوع ! وأىُّ خادم مخلص للإنجليز !.. هل كان يخطر بباله وهو يُمنِّى نفسه بأحلام الخلافة أنه يمهد الطريق لتسليم فلسطين للصهيونيين ؟

كان يعلم !..

وبين أيدينا اليوم وثائق لا شك فيها ، متبادلة بين «شريف مكة» هذا وأولاده ، فيها تفاهم واتفاق مع الصهيونيين على هذا المصير !.

***

obeikandl.com

الفلاحون: لا ملائكة ولا شياطين
ولكنهم قوة هائلة ينقصها قائد

عندما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها ، ساد مصر كلها شعور عام بالخوف من المصير.. كان هناك شعور بأن شيئاً ما ينبغى أن يُعمل ، ليمنع الإنجليز وعملاءهم من أن يقضوا على مصر قضاء مبرماً..

هناك من يقولون: إن فكرة الثورة ولدت وعاشت فى أوساط محددة ضيقة من المتعلمين الطامحين إلى السلطان ، ومن الأثرياء وأنصاف الأثرياء الذين جمعوا أموالهم أيام الاحتلال وفى أثناء الحرب العالمية الأولى ، وأن هذا الرخاء كان الحافز الرئيسى للمصريين على التحرك والاستجابة لنداء الثورة..

هناك وجه من الصدق فى هذه الملاحظة ، لأن الحركات القومية فى حاجة إلى شىء من الرخاء والحرية لتولد وتنمو..

ولكننا ينبغى أن نلاحظ ـ فى الوقت نفسه ـ أن هذا الرخاء كان محدوداً جداً ، ومحصوراً فى دائرة ضيقة من المصريين.

أما الذى كان عاماً وشاملاً ، فهو الفقر والشعور بالظلم والضياع..

فإن الاحتلال الإنجليزى اصطنع طبقة رخيصة من الناس ليحكم بها وعن طريقها.. طبقة تتكون من نفر من المتعلمين فى العاصمة وبعض المدن ، ونفر من الأثرياء وأنصاف الأثرياء ، ممن سمحت لهم سلطات الاحتلال بتملك مساحات من الأرض الزراعية ـ كبيرة أو صغيرة ـ وساعدتهم على استغلالها واستثمارها بمشروعات الرى التى اهتموا بها اهتماماً كبيراً.

ومن هؤلاء ـ أيضاً ـ نفر نهضت بهم سلطات الاحتلال إلى الوظائف الكبرى ، وسمحت لهم باستغلال نفوذهم فى الإثراء بصور شتى ، وبهذا أصبح الكثير من رجال الحكم صنائع للاحتلال ورجاله وأدواته ، ومعظم الوزراء ووكلاء الوزارات والمديرين

والمحافظين ومن إليهم ، ممن تقلَّدوا الوظائف الرئيسية منذ دخول المحتلين حتى نهاية الحرب العالمية الأولى ، يدخلون فى هذه الطبقة..

وهذه الطبقة لم تشارك فى الثورة قطعاً ، ولا هى تعاطفت معها ، وإنما هى أشاعت فى البلاد رخاء ملحوظاً كان من العوامل التى ساعدت على قيام الثورة ، فإلى جانب كبار الموظفين نشأت قاعدة أوسع من الموظفين صغاراً وكباراً ، وهؤلاء جميعاً كانوا يجرون فى فلك الكبار ويقلدونهم.

وإلى جانب كبار الملاك فى الريف نشأ عدد كبير من صغار الملاك وأوساطهم من الأذكياء وذوى النشاط والتطلُّع ، فكثر فى البلاد المياسير والمساتير.

ونهض إلى جانبهم كثيرون من أهل الحرف ممن تعلَّموا على أيدى رجال الجاليات الأجنبية ، وخاصةً الإيطاليين والأرمن واليونانيين. وظهرت فى البلاد طبقة من أصحاب الصناعات الحديثة ، مثل حياكة الثياب والنجارة والسباكة والأعمال الميكانيكية والكهرباء وتسيير ماكينات الرى وحلج القطن والقاطرات البخارية ، وغير ذلك مما لم يكن منه بد لتسيير البلاد فى الطريق الحديث . وقد كثر هذا الطراز من العمال فى القاهرة والإسكندرية وبورسعيد والإسماعيلية والمنصورة وغيرها من العواصم ، ومنهم من تمكَّن بجهده من إنشاء ورش أو محلات تجارية أو محالج.

وقد كانت الحرب فرصة كبرى لهؤلاء جميعاً فربحوا وتموَّل كثيرون منهم ، وساعدهم على ذلك ثبات الجنيه المصرى وقوته الشرائية ، وسهولة التعامل به مع الخارج دون قيد أو شرط ، فتدفقت المنتجات الخارجية على البلاد بغزارة ، وتكاثرت الدكاكين الحديثة فى الشوارع الجديدة ، وانتقل مركز الحياة فى مدينة القاهرة من الغورية وتحت الربع والمغربلين والفحَّامين ، إلى شارع محمد على وشارع عبد العزيز وميدان العتبة الخضراء . وبعد الحرب والثورة مباشرة سينتقل هذا المركز ـ مرة أخرى ـ إلى ميدان الأوبرا وشوارع بولاق وعماد الدين والمناخ وقصر النيل وما إليها.

هذه الانتقالات رموز على تطور شامل كان يجرى فى البلد كله ، لأن الانتقال من الغورية وتحت الربع إلى شارع محمد على وشارع عبد العزيز ، كان معناه انتقال القيادة الاقتصادية من وكالات الغورية وحى الأزهر إلى محلات حديثة المظهر والطبيعة ،

وانتقال عجلة القيادة من أيدى أصحاب القفاطين والعمائم من التجار ، إلى الأفندية لابسى الطرابيش أو أنصاف الأفندية ، وكلنا نعرف هيئة التاجر أو صاحب الورشة ذى الجبَّة والقفطان والطربوش والحذاء الحديث ، فهذا ـ ولا شك ـ نصف أفندى ، وهو طراز يدل على تحول اجتماعى واقتصادى أيضاً.

• جيل جديد لعصر جديد:

وأهم من هؤلاء جميعاً ، كان أبناؤهم الذين ذهبوا إلى المدارس وتخرَّجوا فيها ، وتوظَّفوا بعد « البكالوريا » مباشرة ، أو درسوا فى مدارس الطب والمهندسخانة والمعلمين والقضاء الشرعى ودار العلوم والحقوق وما إليها ، فهؤلاء كانوا ظاهرة اجتماعية وقاعدة عريضة للعمل السياسى والاقتصادى . والأجيال الأولى من هؤلاء هم الذين أيَّدوا مصطفى كامل ، وتحمَّسوا وتأثروا بكلامه البالغ العمق الشديد الإخلاص ، ولكن مشاركتهم له اقتصرت على مجرد السماع والتأثر ، لأن ظروفه لم تسمح له بأن يقودهم إلى أبعد من ذلك.

نعم إنه كان يهاجم الاحتلال ويطالب بالاستقلال التام ، ولكنه لم يوضِّح لأتباعه : كيف؟ .. فلكى يتحرك الناس ينبغى أن يعرفوا كيف يتحركون ، لابد أن نرسم لهم الخطوات الأولى على الأقل ، وأهم من ذلك لابد أن يعرفوا إلى أين ، ومن يقود المسير..؟ .

هذه الطبقة الجديدة من الشباب ، ما بين تلاميذ وخرِّيجين ، كانوا يحسُّون تماماً بمحنة بلادهم عندما انتهت الحرب ووقعت الهدنة واقترب موعد مؤتمرات السلام ورسم خريطة جديدة للدنيا . كانوا يشعرون بذلك ، ولكن كان ينقصهم القائد الذى يستطيع تحويل الخوف إلى عمل ، والغضب إلى إرادة ، ويقود المسير..

وقد عجزت كل الهيئات العاملة فى الميدان السياسى ـ إذ ذاك ـ عن أن تقوم بذلك العمل ، فأما الحزب الوطنى فقد كان نشاطه ـ فى مجموعه ـ عملية بكاء وتحسُّر وتخويف للشعب ، ومطالبة بالجلاء هى أقرب إلى الصلوات والدعوات منها إلى العمل السياسى الإيجابى..

ولقد كان مصطفى كامل شخصية فاتنة ، وكان زعيماً مخلصاً ما فى ذلك شك ،

وكان حبه لمصر يفوق كل تصوُّر ، ولقد استطاع بفروسيته وبلاغته أن يغرس فى قلوب المصريين فكرة ضرورة إجلاء البريطانيين عن بلادهم ، ولكنه لم يقل لمواطنيه كيف يستطيعون ذلك؟ .. لأن رؤية الهدف لا تُغنى عن البحث عن الطريق إليه ، بل إن هذه الرؤية تصبح عذاباً إذا لم يجد الإنسان طريقاً يوصله إليه . نرى ذلك بوضوح فى حياة محمد فريد (خليفة مصطفى كامل) ، فقد كان يرى الهدف ولكنه لا يعرف الطريق إليه؛ فكانت حياته ـ لذلك ـ عذاباً طويلاً..

وقد تنبَّه مصطفى كامل إلى ذلك قبيل وفاته ، فأنشأ «الحزب الوطنى» فى٢٢ أكتوبر١٩٠٧م ، وبذل جهداً كبيراً فى تنظيمه وترتيب تحرير جريدته «اللواء» ، ولكنه لم يعش بعد ذلك طويلاً ، إذ توفى فى فبراير ١٩٠٨م ، أى : بعد إنشاء حزبه بأربعة أشهر فحسب ، توفى فى ريعان شبابه تاركاً لخلفه محمد فريد التركة الحزينة التى وصفناها . ولقد تولى تحرير« اللواء» ـ بعد ذلك ـ عبد العزيز جاويش ، وهو من الزعماء الذين يخلقون من المشاكل أكثر مما يحلُّون . كان جاويش ـ مثل رشيد رضا والكثيرين من زعماء العرب فى ذلك العصر ـ يعتقد أنه يحل المشكلة إذا وصفها وصفاً بليغاً ، وقد كاد هذا الرجل ـ بتعصُّبه ـ أن يُغرق البلاد فى بحر من الفتن ، ولكن عقلاء الأمة تداركوا الأمر لحسن الحظ.

فى الوقت نفسه تقريباً أُنشئ «حزب الأمة» ، أو حزب الأثرياء والمياسير ونفر من المعلمين ، والكثيرون من هؤلاء جمعوا أموالهم وطفوا على السطح أيام الاحتلال ، فلم يكن لديهم ـ لهذا ـ مسوِّغ عميق لكراهيته أو العمل الحثيث للقضاء عليه سريعاً ، أولئك هم جماعة محمود سليمان باشا وحسن عبد الرازق باشا وأحمد لطفى السيد باشا ، ومن إليهم ممن شاركوا غيرهم من معاصريهم الإحساس بالخوف على المصير ، وفكروا فى الاستقلال ورسموا لأنفسهم طريقاً إليه ، طويلاً ومريحاً فى الوقت نفسه ، طريقاً لا يفرض عليهم تضحيات ولا مواجهات ، وإنما هم يتكلمون فقط كلاماً معقولاً ، خلاصته أن مصر المستقلة ينبغى أن تكون دولة حديثة ، متعلمة ومنظمة على الطريقة الغربية ، وأن الاستقلال يأتى نتيجة لارتقاء شعب مصر إلى هذا المستوى ، وإذن: فليس علينا إلا أن نجتهد فى تعليم الشعب وترقيته وتنظيمه ، حتى يصل إلى المستوى المطلوب فيستقل من تلقاء نفسه.

ومن الحق أن نقرر أن آراء رجال حزب الأمة ـ كما عبَّر عنها كاتبهم أحمد لطفى السيد فى « الجريدة » ـ كانت آراء جريئة وتقدمية ، فقد نادوا بضرورة وضع دستور للبلاد ، والحد من سلطان الخديو ، ودعوا إلى إقامة الحكم كله على أساس النظام النيابى. وقد نفر الخديو عباس حلمى من هذه الآراء ، وأحس أنها أثقل على قلبه من نداءات مصطفى كامل العنيفة المتشددة ، ولهذا عَادَى حزبَ الأمة ، ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً ، لأن الحزب ورجاله كانوا ـ إلى حد ما ـ يحظون بتأييد سلطات الاحتلال.

لهذا لجأ الخديو إلى إنشاء حزب خاص به سمَّاه «حزب الإصلاح الدستورى» ، واستخدم فى إنشائه الشيخ على يوسف وجريدته « المؤيد»..

ولا يمكن القول إن على يوسف كان مفكراً وطنياً ممتازاً ، ولكنه ـ دون شك ـ كان شخصية قوية ، لها أبعادها ولها دورها فى تاريخ الصحافة المصرية..

ولقد كان على عداء مع مصطفى كامل والحزب الوطنى ، وكان ـ أحياناً ـ يهاجم الاحتلال وينقده ، ولكنه كان حريصاً ـ دائماً ـ على أن يظل على وفاق مع «المعتمد البريطانى» من ناحية و« عطوفة أفندينا» من ناحية أخرى..

وعطوفة أفندينا هذا ـ عباس حلمى الثانى ـ كان مواطناً تركياً وموظفاً بريطانياً على عرش مصر ، ولهذا كان ـ دائماً ـ عنصراً غريباً على مسرح السياسة المصرية ، وأنت تشعر ـ دائماً ـ وكأنما هو ممثل ضل طريقه إلى مسرح آخر ورواية أخرى .

هؤلاء ـ جميعاً ـ كانوا فى واد ، وكتلة شعب مصر فى واد آخر .. حقاً كان الحزب الوطنى أقرب الجميع إلى كتلة الشعب ، لمهاجمته الإنجليز ومناداته بالجلاء ، ولكن عواطفه العثمانية كانت تسدل حجاباً بينه وبين الفلَّاح المصرى ، الذى كان ينفر من كل ما هو «عثمانلى» .. وهنا نجد أن رجال حزب الأمة ـ برغم أرستقراطيتهم وزواج حزبهم العرفى بالاحتلال ـ كانوا أقرب إلى ذلك الفلَّاح . فهم يتحدثون مثله عن مصر والمصريين ، وعن الزراعة والأرض والأسعار ، والكثيرون منهم ـ مثله ـ فلَّاحون يتكلمون مثله بالصعيدية أو البحراوية ، وإن كانوا ـ طبعاً ـ أغنى منه بكثير..

ولكن هذه الأحزاب ـ جميعاً ـ كانت تقوم بضجَّتها فى ركن صغير جدًا من المسرح المصرى : كان أتباع الحزب الوطنى آلافاً قليلة من الأفندية وطلبة المدارس العالية

المتحمسين ، أما أتباع حزب الأمة فلم يكونوا ليبلغوا بضع مئات ، وكانت«الجريدة» ـ لسان حال حزبهم ـ أهم وأبعد أثراً من الحزب نفسه ، لأنها كانت صحيفة ثقافية تقوم بالدور الذى ستقوم به «السياسة الأسبوعية» فيما بعد ، وهى مجلة صدرت عن «حزب الأحرار الدستوريين» وريث « حزب الأمة ». أما « حزب الإصلاح الدستورى » فكان مشروع رجل واحد ، رجل مغامر جرىء ذكى عرف كيف يشق لنفسه طريقاً وسط بحر ملىء بالمخاطر والمتاعب ، وهذا الرجل هو «على يوسف».

كان رجال هذه الأحزاب جميعاً يتحاورون ويصخبون فى شبه غرفة واسعة ، وكان الشعب يسمع أصداء هذا الصخب ، وربما رأى خلال النوافذ والشرفات هؤلاء الأشخاص يروحون ويجيئون ، ولكنهم كانوا بعيدين عنه ، يلقون إليه بالتحية من حين إلى حين ، ولكنهم لا يلتقون به إلا فى النادر .

● **« الإدارة » أداة من أدوات الاحتلال:**

أما الذين كان يراهم دائماً ويحس بوطأتهم ـ باستمرار ـ فرجال الحكومة ، وخاصة المحصِّل والمحضر وشيخ الخفر وضابط النقطة وشيخ البلد ، ورجال السلطة الذين كانوا يجمعون الأنفار للتجريدة أو للخدمة ، ويستولون على المواشى والجِمَال والمحاصيل ، وهؤلاء جميعاً كانوا فى نظر الفلاَّح زبانية جهنم ، الموكلين بامتصاص دمه ومصادرة بهيمته والحجز على محصوله وأخذ ابنه وخراب بيته . وهؤلاء جميعاً ـ ومثلهم جيش جرَّار من موظفى الحكومة ـ لا رحمة عندهم ولا إنسانية ، وظيفتهم الأساسية اعتصار دم الفلاَّح ، وعيونهم مفتوحة إلى كل ما يملك مهما قلَّ ، حتى العنزة الهزيلة التى ترعى فى الفناء ، والدجاجة المريضة التى تقتات بالنفايات أمام الدار ، و«كيلة الذرة» التى يطعم منها عياله ، هؤلاء كانوا يطاردونه ويتعقبونه منذ الأزل ، وقد انضاف إليهم فى أيام الإنجليز مفتش الرى والمسَّاح ، ومقاول أنفار العونة واليونانى أو اليهودى أو المالطى الذى يطوف الريف يبحث عن الفلاَّح المرهق المعسر ، ليشترى منه قنطار القطن بسبعة عشر ريالاً ، كان الفلاَّح يقبضها لأنه لا يستطيع انتظار٤٢ ريالاً ، تعطيه إيَّاها الحكومة ثمناً للقنطار ولكن بعد إجراءات مرهقة طويلة ، وربما أخذ هذه الريالات القليلة ليدفعها رشوة لمقاول أنفار السلطة ، لكى يترك له ابنه الوحيد فلا يبلغ عنه« نقطة» البوليس..

عن متاعب هذا الفلاَّح ما كان أحد من اللاعبين على مسرح السياسة يقول شيئاً ، كان رجال الحزب الوطنى يتحدثون عن الاستقلال التام فى مجتمعاتهم ، ولكن ندر أن خرج واحد منه إلى قرية ليرى مأساة بلاده الحقيقية ، وكان رجال حزب الأمة يكتبون عن العدالة الاجتماعية ، أما رجالهم فى الأرياف فينزلون الويلات بالفلاَّحين ليأتوهم بالأموال التى ينفقونها فى التصييف فى أوربا كل سنة.. أما رجال الحكومة ورجال السلطة ـ من رئيس النظَّار حسين رشدى باشا إلى كاتب شونة البنك الزراعى (الإنجليزى) ـ فقد كانوا يعاملون الفلاَّح على أنه مخلوق من حجر أو من خشب لا يحس ولا يشعر..

• وذلك العبء كله حمله الفلاح فى صمت:

ولكن الفلاَّح نفسه كان يشعر أنه إنسان كامل وليس مخلوقاً من حجر أو خشب ، ولكنه كان يائساً تماماً من أى لون من ألوان الإنصاف ، بل لم تكن هناك وسيلة لإيصال صوته لأحد ، ثم إنه كان عاجزاً عجزاً مطلقاً عن الدفاع عن نفسه أمام هؤلاء الأعداء الكثيرين ، لأن الدفاع يكون بأحد أمرين : العلم أو السلاح ، أو كليهما . فأما العلم فلم يكن له إليه سبيل ، ولا أحد ينوِّر ذهنه أو يأخذ بيد ابنه إلى المدرسة ، وأما السلاح فقد حرَّموه عليه من قرون طويلة. وبتوالى الظلم واليأس تجمَّد الفلاَّح مكانه ، وأصبح لا يهتم كثيراً لما يجرى عليه أو حوله ، ولهذا لم يفهمه أحد ، ومرت القرون وهو على حاله وفقره وما يعانيه من الظلم والآلام.

غير أن الفلاَّح عندما جمد فى مكانه طوى نفسه على ما فيها من كل خير وشر ، ومن الحق أن نقرِّر أن هذه النفس الفلاَّحية كان فيها خير كثير وإنسانية ذات عمق ، تستتر خلف ما كان يبدو للناس منه من بلادة وجمود ذهن وبُعد عن تيار الحياة وعزوف عن القتال.

فهذا الفلاَّح نفسه ، عندما جنَّده محمد على فى النصف الأول من القرن التاسع عشر أثبت أنه جندى ممتاز قادر على كسب المعارك الكبرى . ولقد سار بالفعل ـ عندما وجد قادة قادرين ـ فاتحاً حتى وصل إلى منابع النيل وحدود الحبشة وبلغ ساحل المحيط الهندى ، وفى يوم ما وصلت فيالق الفلاَّحين إلى الخليج العربى ورفعت راية مصر عليه.

ومن بطون الريف ظهر ـ فى الفترة التى نتحدث عنها ـ أعاظم الرجال الذين غيَّروا وجه مصر عندما أتيحت لهم الفرصة : من هناك خرج رفاعة رافع الطهطاوى وعلى مبارك وأحمد عرابى وعلى طلبة ومحمد عبده وسعد زغلول ومحمد محمود ومصطفى النحَّاس وعباس محمود العقَّاد وطه حسين وأحمد لطفى السيد وعبد العزيز فهمى وعبد الرزَّاق السنهورى وعلى إبراهيم وغيرهم من رجال الجحفل اللجب الذى صنع مصر الحديثة وتكوَّن منه جيل سنة ١٩١٩م الذى نتحدث عنه.

والحق أن الملايين التى كانت تعيش فى الأرياف ـ فى المدن والقرى على السواء ، لأن مدن الريف لم تكن إذ ذاك إلا قرى كبيرة ـ كان باطنها أحسن بكثير من ظاهرها ـ بعكس السادة الحاكمين فى أيام الاحتلال من الشركس والألبان والأتراك ، ممن كان وجودهم كله فى ظاهرهم ، إذ لم يكن لهم باطن على الإطلاق . ولسنا نبالغ مبالغة المغرقين فى امتداح الفلَّاحين ممن يصورونهم وكأنهم ملائكة ، لأن الحق أنهم لم يكونوا لا ملائكة ولا شياطين ، وإنما نحن نقول الحق عندما نؤكد أن نفوسهم انطوت على قوة ضخمة ، كفيلة بتغيير اتجاه تاريخ مصر إذا وجدوا من يقودهم قيادة صحيحة ، وكانت فيهم مَلَكَات كثيرة كامنة مستعدة للتفجُّر والانطلاق إذا وجدت إلى ذلك سبيلاً .

ولقد قست حكومات عصر الاحتلال على هذا الفلَّاح قسوة بالغة ، ولكنها ـ حتى قيام الحرب العالمية الأولى ـ لم تبلغ فى ذلك مبلغ المماليك أو الأتراك ، فقد أتاحت لكل فلَّاح أرضاً يزرعها ويكسب منها معاشاً لا بأس به ، وتركت له ماشيته وحماره وجمله .. ولا شك أن أحوال الفلَّاحين استقرت وهدأت بعد طول فوضى واضطراب ، ومن سنة١٨٩٠إلى سنة ١٩١٤م تحسنت أحوال الفلَّاحين تحسُّناً حقيقياً ، واقتنى الكثيرون منهم الأراضى ، ورخيت أحوال القرى وامتنع عنها الكثير من صنوف المظالم الماضية ، لمجرد زوال طبقة اللصوص التى كانت تخدم مصالح المماليك والأتراك وباشوات عصر إسماعيل.

ونشأت قبل الحرب طبقة من مياسير الفلَّاحين أرسلوا أولادهم إلى المدن وإلى العاصمة لكى يتعلموا ، وهذه الطبقة كانت المورد الغنىَّ للشباب الذين سينهضون بعبء ثورة سنة ١٩١٩م ، ومنهم سيكون الرجال الذين سيوجِّهون إلى الاحتلال الإنجليزى اللطمة الكبرى عندما يستجيبون لنداء الثورة ويلبُّون داعى سعد زغلول ورجاله.

وقد كان كرومر وجورست يزعمان أن الاحتلال أحسن إلى الفلاَّحين ، وأنهم معترفون بفضله ، وقد وقع كرومر فى ذلك الخطأ لأنه تكوَّن فى مدرسة الإداريين الإنجليز فى الهند ، وكان فى الهند ـ بالفعل ـ طبقات من الفلاَّحين يرون أن الإنجليز حماتهم من أبناء جلدتهم ، الذين كانوا يسومونهم سوء العذاب من مئات السنين . ولكن مصر هى مصر ، والهند هى الهند ، ولكل بلد طبيعته وتكوينه.

• وعندما قامت الحرب كشف الاحتلال عن وجهه البشع:

وهؤلاء الفلاَّحون الذين تحسنت أحوال بعضهم وبدأوا يخرجون من ظلمات العصور الماضية ، هم الذين شعروا فى أثناء الحرب العالمية الأولى أنهم بلا ناصر ولا معين . فقد عدا عليهم رجال الحكومة وسلطة الاحتلال عدواناً غاشماً ، فجمعوا الأنفار بالقوة وسخَّروهم لصالح الاحتلال ، وجمعوا المحاصيل واشتروها بأبخس الأثمان ، واستولوا على المواشى والخيل والحمير والجمال بالثمن الذى فرضوه . وبينما كانوا يعانون هذا الظلم لم يتحرك لنصرتهم أحد ، لا رجال الحزب الوطنى ولا فلاسفة حزب الأمة ولا أصحاب البيان ممن كانوا يحررون صفحات «المؤيد» و«الأهالى» ، وتطلعت نفوسهم إلى زعيم يتصدى للدفاع عنهم وإيقاف الظلم الواقع عليهم.

والحق أن مصر فى أواخر الحرب العالمية الأولى كانت مجتمعاً حزيناً خائفاً معذَّباً ، ولكن كل قطاع من سكانه كان يعانى آلامه وحده : الفلاَّحون يفقدون ـ شيئاً فشيئاً ـ القليل الذى جمعوه فى سنوات الهدوء القليلة الماضية ، وتَلاَعُبُ الإنجليز والتجار الأجانب بأسعار القطن بدأ يقضى على ما حصَّله شيوخ القرى وأعيان الريف من أموال وأهل الحرف فى المدن ضاق بهم العيش لقلة الموجود من البضائع وغلاء أسعاره وقلة النقود فى أيدى الناس ، والأفندية ـ موظفو الحكومة ـ حلَّ بهم الفقر لارتفاع الأسعار وقلة المرتبات ، وأهل الحكم من باشوات الشركس والألبان والأتراك قاربت أيامهم النهاية ، بسبب دخول العنصر المصرى ديوان الوظائف الكبرى ، وكان «كرومر» قد شرع فى ذلك من أواخر القرن الماضى ، ربما لأنه تبين أن طراز الوزراء الذى عرفته البلاد منذ بداية الاحتلال ، كان طرازاً عاجزاً قليل الجدوى ولا يصلح مع مرور الزمن لخدمة مصالح انجلترا أو مصر ، إنما هم قوم زائفون هامشيُّون ، كل قيمتهم فى مناظرهم

وألقاب عائلاتهم من مثل «حبّ الرمّان» إلى «كعب الغزال».. مع خلوِّهم من أى عاطفة قومية من أى نوع ..

• وعظمة السلطان:

حتى السلطان الذى عيَّنه الإنجليز لم يكن سعيداً بالوضع..

فأما حسين كامل فكان أميراً غير متوازن الشخصية ، وكان بعيداً كل البعد عن حقائق الوضع فى البلاد وفى العالم ، وقد أحاط نفسه بحاشية من «أبناء الذوات» ، ونجح فى أن يبدو سلطاناً ولكنه فشل فى أن يكونه..

ثم جاء أحمد فؤاد ، وكان ثعلباً ماكراً لا يهتم إلا بما يعود عليه هو نفسه بالخير ، وقد فاجأته الحركة الوطنية مفاجأة تامة ، وظل حتى وفاته لا يفهمها ، لأنه عقد عزمه من أول الأمر على ألاَّ يفهمها .. وربما اعتقد أن ذلك من لوازم السلطنة ، ومن لوازمها الرئيسية عنده المال فانصرف إلى جمعه ، وخلال السنوات القليلة الأولى لسلطنته أثرى ثراء فاحشاً ، مستخدماً نفوذه تارة وعدداً من الأجانب ممن يعملون فى سوق الأوراق المالية والشركات التجارية تارة أخرى ، ومعظم هؤلاء كانوا من الإيطاليين ثم اليونانيين والفرنسيين.

وعندما انتهت الحرب وعُقدت الهدنة ، وبدأت الاستعدادات لمؤتمرات الصلح ، واستولى الخوف من المصير على أهل مصر جميعاً ، لم يكن هناك إنسان مطمئن وسعيد إلا أحمد فؤاد ، وقد كدَّرت الثورة صفو حياته وأدخلته فى مشاكل ما كان ليفكر فيها ، ولكنه ـ مع ذلك ـ أفاد منها بصفته رأس المصريين ، فصار ملكاً بعد أن كان سلطاناً ، ولم يخجل عندما صدر تصريح ٢٨ فبراير١٩٢٢م من أن يعلن الأمر إلى الأمة بقوله فى بيان أذاعه فى١٥ مارس ١٩٢٢م : «لقد مَنَّ الله علينا بأن جعل استقلال البلاد على يدنا وإنَّا لنبتهل إلى المولى ـ عز وجل ـ بأخلص الشكر وأجمل الحمد على ذلك» ..

تلك ـ فى اختصار ـ كانت صورة أرض المعركة.

• شرارة الثورة:

فى الساعة الحادية عشرة من صباح الأربعاء ١٣ نوفمبر ١٩١٨م تمت المقابلة المشهورة بين سعد زغلول وعبد العزيز فهمى وعلى شعراوى ـ الذين رأوا أنهم يمثلون

الشعب المصرى ـ والسير ريجنالد وينجيت معتمد بريطانيا فى مصر ، وبدأوا معه حواراً تاريخياً عن مستقبل مصر بعد الحرب.

كانت الحماية البريطانية التى أُعلنت على مصر يوم ١٨ديسمبر١٩١٤م إجراء مؤقَّتاً قامت به بريطانيا بالقوة ، لتأمين نفسها ولتمكين جيوشها وجيوش حلفائها من النصر فى الحرب.

وفى سبيل ذلك التأمين وذلك النصر ، تحمَّل شعب مصر الكثير من التضحيات والخسائر والآلام.

وانتهت الحرب ، وكان لابد أن تنتهى الحماية معها ، وتنتهى بذلك التضحيات والخسائر والآلام.

والغريب فى الأمر أن ممثل بريطانيا اندهش عندما تبين أن أولئك المصريين إنما أتوه ليتحدثوا إليه فى مستقبل بلادهم ، واندهش أكثر عندما تبين أنهم يفكرون فى الاستقلال..

والواقع أن الإنجليز ـ منذ أن احتلوا بلادنا فى سبتمبر ١٨٨٢م ـ رسموا سياستهم على أساس أن مصر ستظل إلى الأبد من أملاكهم ، فوجَّهوا كل اهتمامهم إلى تكوين شعبها تكويناً يجعله دائماً خادماً لمصالح الشعب الإنجليزى ، فقضوا على كل العناصر الوطنية والمعارضة ، وسلَّموا إدارة البلاد إلى باشوات الشركس والألبان والأتراك ، يعاونهم المستشارون الإنجليز ، وجعلوا سلطان مصر موظفاً لديهم ، وفتحوا أبواب البلاد على مصاريعها للأجانب ، وتوسَّعوا فى منحهم الامتيازات حتى تكون هذه الجاليات عماداً من أعمدة وجودهم ، وليجعلوا من حماية الأجانب تعلَّة يتذرعون بها للبقاء . وعندما قامت الحرب أسرعوا بهذه العملية وثبَّتوا أركان النظام الذى أوجدوه ، وهو نظام يقوم على إلغاء وجود الشعب المصرى بحيث لا يبقى منه ظاهراً للعيان إلا ما يبرر الوجود الإنجليزى.

من هنا كانت دهشة المعتمد البريطانى ، فقد كان يحسب أن «مصر المستقلة» هذه شىء قد انتهى ولم يعد له وجود..

وأولئك الرجال الثلاثة الذين أتوا إليه يحدثونه عن مستقبل مصر ، كانوا ـ هم أنفسهم ـ إلى الأمس القريب يخدمون فى ظل الاحتلال والحماية ، ويتعاملون مع الإنجليز على أنهم السادة فى مصر دون منازع.. وعندما رفض السير ريجنالد وينجيت أن يصرح لهم بالسفر إلى أوربا ، لعرض قضية مصر على مؤتمرات الصلح ، كان يحسب أنه على حق ، وأن موضوع مصر هذا مسألة بريطانية داخلية ، يكون الحديث فيها بعد أن تنتهى مؤتمرات الصلح من عملها ، فهذه مؤتمرات دولية لا شأن لها بمشكلة مصر مع انجلترا ، التى لا تعدو أن تكون مشكلة إنجليزية محصورة بين الحكومة البريطانية وبعض رعاياها.

وقد أيدته الحكومة البريطانية فى ذلك ، بل رفضت السماح لحسين رشدى وعدلى يكن بالسفر إلى انجلترا للتفاهم مع رجال الدولة البريطانية على مستقبل مصر ، وكان أولهما رئيس وزراء مصر الذى خدم الاحتلال بإخلاص طوال فترة الحرب ، وثانيهما كان وكيل الجمعية التشريعية الذى عينته الحكومة.

وفى أثناء ذلك تساءل الإنجليز عن الصفة التى يتحدث بها أولئك الثلاثة عن مصر وشعبها..

ولا شك فى أن سعداً ـ بصفته الوكيل المنتخب للجمعية التشريعية ـ كان له الحق فى الكلام باسم الأمة ، وكذلك زميلاه على شعراوى وعبد العزيز فهمى.

ولكنهم رأوا ضرورة الحصول على توكيل من الأمة يفوِّضهم فى التكلم باسمها ، فبدأت حركة جمع التوقيعات من بقية أعضاء الجمعية التشريعية ومجالس المديريات وذوى الرأى والمكانة فى البلاد ، ومن أراد التوقيع على صيغة التوكيل من أبناء مصر.

وتسارع المصريون فى العاصمة والأقاليم إلى توقيع التوكيلات ، واعتبرت الجماعة نفسها « وفداً » مختاراً من الأمة للحديث باسمها والمطالبة باستقلالها..

وهنا تبرز شخصية سعد زغلول..

إلى ذلك الحين كان سعد زغلول واحداً من ثلاثة ، قرروا أن يواجهوا دار الحماية البريطانية ليتحدثوا إلى رجالها فى مستقبل بلادهم ، وبعد ذلك بقليل أصبح واحداً من سبعة انضم إليهم ـ فيما بعد ـ أعضاء آخرون.

وبعد ذلك بشهرين ـ فى ١٣ يناير ١٩١٩م ـ برز سعد زغلول من بين هؤلاء جميعاً بخطاب ألقاه فى اجتماع دعاه إليه حمد الباسل باشا أحد أعضاء الوفد . هذا الخطاب انتقل بالحركة كلها من مجرد طلب إلى بريطانيا للسماح لنفر من المصريين بالتحدث عن مستقبل مصر فى المجال الدولى ، إلى مطالبة صريحة بالاستقلال التام وإنكار للاحتلال والحماية واعتبارهما أمرين باطلين. وللمرة الأولى تردَّد النداء بأن مصر مستعدة لبذل ما يتطلبه استقلالها من الضحايا.

لقد وجدت البلاد قائداً يعرف كيف يخاطب المستعمر فى جرأة ووضوح ورباطة جأش.. وتوالت من نواحى البلاد دلائل التأييد.

وفى ٧ فبراير ١٩١٩م ألقى سعد خطاباً آخر فى دار جمعية الاقتصاد والتشريع ، ألقاه تعقيباً على المستر برسيفال المستشار بمحكمة الاستئناف الأهلية عن مشروع قانون للعقوبات كانوا يعدُّونه إذ ذاك ، وفى هذا الخطاب قال سعد الكلمة التى أيقظت مصر كلها وأوقفتها على قدميها ووضعت زعامتها فى يده : «فى سنة ١٩١٤م أعلنت انجلترا حمايتها على مصر من تلقاء نفسها ، بدون أن تطلبها الأمة المصرية أو تقبلها ، فهى حماية باطلة لا وجود لها قانوناً ، بل هى ضرورة من ضرورات الحرب تنتهى بانتهائها ، ولا يمكن أن تعيش بعد الحرب دقيقة واحدة».

هذه الخطبة كانت صيحة المعركة ، فقد هزَّت هذه العبارة كيان مصر هزاً عنيفاً وهيَّأتها لخوض المعركة..

فمن هو «سعد زغلول» الذى ردَّد هذه الصيحة فزلزلت هذه الحواجز جميعاً وحوَّلت الشعب المصرى كله إلى إرادة ، وجعلته فى لحظة واحدة يحطم ألف حاجز وحاجز : حاجز الاحتلال البريطانى ، وحاجز أهل الحكم من باشوات عهد الاحتلال ، وحاجز السلطة التى ابتكرها الإنجليز وجعلوا منها قيداً ثقيلاً فى أقدام المصريين ، وحاجز الأفندية البيروقراطيين الذين درجوا على تقديس جناب المعتمد البريطانى وعطوفة ناظر النظَّار وسموِّ الخديو ، وحاجز المصالح والجاليات الأجنبية التى كانت قد أصبحت سرطاناً متشعباً يستشرى فى جسد الأمة كلها ؟..

من هو هذا الرجل الذى أطلق هذه الصيحة التى حوَّلت غضب الشعب إلى ثورة ، وأعطى إشارة المعركة ؟..

ثورة ١٩١٩م
فجّرت كوامن العبقرية فى كيان مصر

إلى حين قريب ، كنا نظن أننا نعرف عن سعد زغلول كل شىء..

بعد عشرات الكتب التى نشرت عنه ـ من كتاب عباس محمود العقاد المبدع ، إلى كتاب محمود يوسف زايد الممتع عن كفاح مصر فى سبيل الاستقلال (بالإنجليزية ، بيروت ١٩٦٥م) ـ كنا نظن أننا صرنا نعرف عن سعد زغلول كل شىء ، وأن تحديد دوره فى تاريخ مصر لم يعد مشكلة.

ولكن مذكرات سعد ، التى وُضعت منذ حين قريب تحت تصرُّف الباحثين ، ألقت ضوءاً جديداً ساطعاً على شخصية سعد وعصره ، وأطلعتنا على نواحٍ كانت خافية من شخصيته ، جعلتنا نقدِّره بأكثر مما كنا نفعل ، ونفهم دوره فى تاريخنا على نحو يختلف تماماً عما كان يحسبه أحسن من كتبوا عنه ، وهو صديقه ورفيقه وكاتبه عباس محمود العقاد ، وهو أيضاً من فحول جيل ثورة ١٩١٩م.

وقد استخدم هذه المذكرات ونشر فقرات منها أخيراً باحث شاب هو عبد الخالق محمد لاشين ، فى بحث جامعى له عن دور سعد فى السياسة المصرية حتى سنة ١٩١٤م (دار المعارف بالقاهرة ، ١٩٧١م).

ولكن هذه الدراسة وفهم مؤلفها لما قرأ من مذكرات سعد وغيره من معاصريه ينبغى أن تؤخذ فى حدودها ، وهى أنها دراسة شاب فى طريقه إلى التكوُّن ، لم يصل بعد إلى القدرة على سبر أغوار رجال من طراز سعد زغلول..

فهو يقرأ ـ مثلاً ـ عبارة لسعد يشكو فيها من زوجته ، فيقول إن العلاقة بينهما لم تكن على ما يرام..

ويجد أن سعداً يقول إنه كان ـ فى فترة ما ـ يضيق ذرعاً بالمصريين ، فيقول إن سعداً لم يكن يحب المصريين ..

ويجده ـ فى أحيان ـ يعامل الإنجليز برفق ، فيقول إنه كان يعامل الإنجليز بأحسن مما كان يعامل مواطنيه ..

وإذا وجد أن سعداً يتفق ـ فى بعض آرائه ـ مع ما كان يراه الإنجليز ، قال إن سعداً كان أداة من أدوات تنفيذ السياسة البريطانية فى وزارة المعارف..

وإذا رآه يوافق على تعيين مدير إنجليزى للبعثة المصرية فى انجلترا ـ برغم مطالبة بعض الصحف بأن يعيَّن فى هذا المنصب مصرى ـ قال إن سعداً كان يفضِّل الإنجليز على المصريين ..

يقول هذا ناسياً أن سعداً كان المصرى الذى طالب بحق مصر بقوة لم يعرفها الإنجليز قبل ذلك قط ، وأنه هو الذى أيقظ بصوته الجهورى مصر كلها من سباتها وسار بها فى طريق القوة والنهوض ..

وقد فاته أن يلاحظ أن اختلاف الرجل مع زوجته مرة أو مرات لا يعنى أنه لم يكن معها على وئام ، وأن غضب سعد على مواطنيه كان يمثل فترة يأس سوداء مرت به عندما وصلت حياته إلى طريق مسدود فيما بين ١٩٠٧ و ١٩١٢م : كان قد وصل إلى الوزارة والثروة والجاه والمكانة ووقف بعد ذلك لا يدرى ماذا يصنع ، وانتابته أزمة نفسية شديدة فكره الحياة وكره نفسه حتى ردَّد فى مذكراته أن الموت أولى بمن كان فى مثل حاله ..

وفات المؤلف كذلك أن يفترض أن سعداً ربما كان يرى ـ بالفعل ـ أن مدير البعثة فى انجلترا فى ذلك الحين كان من الأفضل أن يكون إنجليزياً ، أو أنه لم يجد مصرياً يثق من أن فيه القدرة على القيام بهذه المهمة.

وفاته كذلك أن سعداً رجل ضخم له شخصيته وأسلوبه فى النظر إلى الأشياء ولا يمكن تعليل تصرُّفاته بما يراه شاب على عتبة الحياة يظن الناس كلهم مثله : لا يفكر إلا فى الحصول على الوظائف والترقِّى وكسب رضا من يظن أن بيدهم أمره ..

وسعد ـ عندما كان يكتب هذه المذكرات ـ لم يكن يخطر بباله أنه سيكون يوماً ما زعيم بلده بغير منازع ، فهو كان يكتبها لنفسه على عادة الكثيرين من الناس ، وهو ـ لهذا ـ لا يكذب فيها. فإن الإنسان لا يكذب على نفسه ، ويكفى الرجل فخراً أنه صارح نفسه بأخطائه دائماً ، وسجَّل على نفسه عيوبه وهفواته ، ولام نفسه لوماً شديداً فى أكثر

من موضع ، وقد كان مستطيعاً أن يرفع من هذه المذكرات أجزاء كثيرة تعيبه ، بعد أن أصبح زعيم البلاد والعدوَّ الأكبر للإنجليز ، ولكن الرجل ترك ما كتب كما هو غير مكترث لما يقوله الناس ، وهذه لمحة من قوة الشخصية وسلامتها لا تخفى على أحد ..

ونحن ـ الآن ـ نقرأ مذكرات سعد ونفهم أن صفحاتها تمثل أدواراً فى تطور الشخصية الزغلولية ونضجها ، وهى تصوِّر كذلك حالات نفسية عابرة وغير عابرة ـ لا يعدم الإنسان مثلها فى مذكرات نابليون وبسمارك وتشرشل ، فأولئك الرجال تتطور آراؤهم ويزدادون نضجاً وحكمة مع الأيام طوال حياتهم تقريباً ، وهذا ـ فى الغالب ـ مظهر من مظاهر عبقريتهم ، وهم ـ بهذا ـ يختلفون عن الرجل العادى ، فهذا يبلغ أقصى نضجه العقلى سريعاً ، ثم يجمد ذهنه بعد ذلك إلى آخر حياته.

ومن هذا القبيل أيضاً إنكار المؤلف على سعد اهتمامه بتدريس اللغة الإنجليزية فى المدارس ـ إلى جانب العربية طبعاً ـ ويغيب عن خاطره أن سعداً كان يصدر فى ذلك عن تجربته الشخصية ، فهو نفسه لم تتفتح أمامه السبل ، ولم يصل إلى ما وصل إليه ، إلا بعد أن تعلَّم لغة أجنبية وأتقنها . ومن حسن الحظ أن كل المخلصين من جيل سعد ، كانوا يرون أن تعلُّم اللغات الأجنبية هو الجسر الذى ينبغى أن يُمَدَّ ليعبر عليه شعب مصر إلى العصر الحديث ، ولم يكن سعد ولا أحمد لطفى السيد ولا قاسم أمين يخشون على مصير اللغة العربية إذا تعلَّم الشباب ـ جنباً إلى جنب معها ـ لغةً أوربية ؛ وكانوا فى ذلك على رأى «جيته» الشاعرالألمانى الأكبر ، عندما سأله شاب أن يدلَّه على أحسن الطرق لإتقان الألمانية فنصحه بأن يتعلَّم الفرنسية ، فأعاد الشاب السؤال فأعاد «جيته» الجواب ، علماً بأن اللغة تغتذى بغيرها أحسن مما تغتذى بنفسها.

ودليل ذلك أن أحسن جيل أتقن اللغة العربية هو بالذات الجيل الذى كان فى المدارس فيما بين ١٨٩٠ و ١٩١٠م ، وأين لنا جيل مثل جيل طه حسين والعقاد والمازنى وسلامة موسى ومحمد حسين هيكل وتوفيق دياب وتوفيق الحكيم وطبقتهم؟ .. وعندما جرفنا الحماس للغة العربية فى الأجيال التالية ، وحدَّدنا مجال اللغة الأجنبية ، ضعفت العربية بل وصلت إلى المستوى المحزن الذى نحن فيه اليوم. ومؤلف الكتاب نفسه يصحِّح أوراق طلابه ، ويرى بنفسه مقدار علمهم بلغتهم العربية نتيجة للحنان الجاهل عليها..

إن مذكرات سعد نفسها تدل على أن ذهنه وقلبه كانا مشغولين بمشاكل التعليم انشغالاً عميقاً ، يدل على أنه لم يكن يعمل فى الوزارة كمجرد وزير ، بل كمواطن يخدم وطنه بكل صدق وإخلاص . فهو يعرض آراءه فى صراحة تامة ، ويناقش خصومه ويحمل عليهم فى مذكراته ، كأن الأمر كان نجوى نفسه . وقد كان خصومه الذين يدبِّجون المقالات فى نقد سياسته ـ من أمثال عبد العزيز جاويش ومحررى « اللواء» ـ أبعد ما يكونون عن الحكمة وفهم الظروف . وهؤلاء أيضًا هاجموا قاسم أمين وقضوا عليه ، وعبد العزيز جاويش كاد بتهوره أن يوقع مصر فى فتنة دينية نحمد الله على أن نجَّى منها البلاد.

لا نقول هذا دفاعاً عن سعد ، فإن أمثال سعد قد تقررت مكانتهم فى التاريخ بجهدهم وعبقريتهم لا بدفاع الناس عنهم . وقد مضى سعد وانقضت أيامه ، وما كنا يوماً وفديين أو أتباعاً لأى حزب ، وإنما هو رجل حمل راية مصر ـ يوماً ما ـ وخاض بها معارك مجيدة ، ولهذا فنحن نحبه كما نحب أحمد عرابى ومصطفى كامل ومحمد فريد وجمال عبد الناصر وكل المجاهدين المخلصين ممن صنعوا تاريخ هذا البلد ، وربما كان أحبَّهم إلى نفوسنا أولئك الجنود المجهولون الذين ماتوا فى سبيل مصر فى ميادين المعارك وفى ضجيج المظاهرات وصمت السجون والمستشفيات.

● حياة سعد: قطاع فى المجتمع المصرى قبل الثورة:

ولد سعد زغلول فى قرية إبيانة ـ مركز فوة (بمحافظة كفر الشيخ الحالية) فى بيت لأحد المياسير ، إذ كان أبوه الشيخ إبراهيم زغلول من أعيان القرية . كان ميلاده فى أوائل يونيو ١٨٥٦م أى: فى عصر إسماعيل ، وتعلَّم فى الكُتَّاب وحفظ القرآن وهو صغير ، لأن أسرته كانت تريد له أن يصير فى سلك الشيوخ ، فيتعلم تعليماً دينياً تقليدياً ، فى حين أُرسل أخوه فتح الله زغلول ـ الذى غيَّر اسمه بعد ذلك إلى أحمد فتحى زغلول ـ إلى المدارس المدنية ؛ وبعد سنوات يصبح سعد شيخاً يدرس فى الأزهر.

ويدخل الشيخ سعد الشاب فى زمرة أتباع محمد عبده ، ويصبح من أقرب تلاميذه إليه . وفى الخامس من أكتوبر ١٨٨٠م يصبح سعد مساعداً للشيخ محمد عبده فى تحرير «الوقائع المصرية» ، ويدخلان بها معاً عصراً من التجديد . هنا يترك سعد صفوف

الأزهريين ويدخل فى سلك الأفندية ، موظفى الحكومة لابسى البذلات والطرابيش..

وفى سبتمبر ١٨٨٢م يصبح «سعد أفندى» ناظراً لقلم القضايا بمديرية الجيزة.

وفى٢ أكتوبر ١٨٨٢م يُفصل من وظيفته عقاباً له على اشتراكه فى الثورة العرابية.

وفى أبريل ١٨٨٣م يدخل عالم المحاماة ، وكانوا ـ إذ ذاك ـ لا يشترطون للعمل بها مؤهلات دراسية..

ثم يُقبض عليه بتهمة الاشتراك فى جمعية سرية ، ويظل فى السجن إلى يوم ٣ أكتوبر ١٨٨٣م ، بعد أن حُبس مائة يوم وخمسة أيام.

نتيجةً لهذا السجن ؛ فقد سعد أهليته للوظائف الحكومية..

أغرب ما فى سعد هذه القوة الهائلة التى يتخطَّى بها العقبات ، وهذه القوة كانت تعتمد على خُلُقه المتين وإرادته التى لا تُقهر ومثابرته التى لا تكلُّ . فهذا الرجل الذى وقف فى الطريق موصوماً بوصمة السجن وهو فى الرابعة والعشرين من عمره ، يعود إلى المحاماة وينطلق فى طريقه صاعداً السُّلَّم الاجتماعى فى قوة وسرعة . بعد أربع سنوات فقط نجده على رأس المحامين فى أيامه ، بل تختاره الحكومة عضواً فى لجنة شُكِّلت لتنقيح قانون العقوبات..

وهنا نجده يتردد على صالون الأميرة نازلى فاضل ، ثم يصبح وكيلاً لأعمالها حتى يتحدث الناس بقرب زواجه منها ، وفى سنة ١٨٩٢م يُعيَّن فى وظيفة نائب قاضٍ بمرتب قدره ٤٠ جنيهاً فى الشهر.

فى ذلك الحين كان سعد قد أصبح رجلاً موسرًا يمتلك نحو ٤٠٠ فدان كسبها من عمله فى المحاماة ، وفى سنة ١٨٩٦م يبنى لنفسه قصراً فى شارع الإنشا بالقاهرة.

وفى السنة نفسها يتزوج الآنسة صفية مصطفى فهمى ابنة رئيس الوزراء ، وبزواجها منه دخلت التاريخ ، فالسيدة «صفية زغلول» ستصبح يوماً ما ـ وعن جدارة ـ أم المصريين ..

وفى السابعة والثلاثين من عمره يبدأ فى دراسة القانون فى جامعة باريس ، وفى التاسع من يوليو ١٨٩٧م يحصل على ليسانس الحقوق ..

هنا نجد سعداً يشارك فى كل أمر جليل يجرى فى البلد ، ويصبح من الشخصيات الكبرى ، بل محور الحياة العامة فى أيامه ..

وفى ٢٨ أكتوبر ١٩٠٦ م يصبح ناظراً ـ أى : وزيراً ـ للمعارف..

وفى هذه الوزارة يخوض أولى معاركه مع الإنجليز ، ويشتد الصراع فيضطر إلى ترك وزارة المعارف إلى وزارة الحقَّانية سنة ١٩١٠ م .

وفى ٣١ مارس ١٩١٢م يستقيل من الوزارة.

***

مررنا هذا المرور السريع بحياة سعد إلى سنة ١٩١٢م ليرى القارئ ـ كيف اخترق هذا الرجل ـ بجهده وملكاته ـ طبقات المجتمع جميعاً حتى وصل إلى القمة..

ولم يكن هذا الصعود عادياً ولا سهلاً ، ولا هو اتصل دون صعوبات ، فقد لقى سعد فى طريقه الفصل والسجن.

بدأ ابن مزارع ، ثم أصبح أزهرياً ، فعضواً فى حلقة محمد عبده الإصلاحية ، ثم أصبح أفندياً ، فمحامياً..

وهذا الثائر المصلح الذى يُتهم بالاشتراك فى جمعية إرهابية ، ويُسجن سنة ١٨٨٣م ، يتزوج ابنة رئيس الوزراء ـ قمة هرم الأرستقراطية ورجال الحكم من طبقة الشركس والأتراك والألبان ـ وكان ذلك سنة ١٨٩٦ م ..

وفى كل مرحلة من هذه المراحل كان سعد زغلول زعيماً لأهل المرحلة . . حتى الوزارة ، أصبح ـ عندما وصلها ـ أهم الوزراء .

• أزمة سعد وأزمة مصر:

فى أواخر أيام سعد فى وزارة المعارف ، وطوال خدمته فى وزارة الحقانية ، كان يعانى أزمة نفسية نستطيع أن نسميها «أزمة الطريق المسدود» ..

صاعداً من أسفل السُّلَّم ، وصل إلى أقصى ما كان يطمح إليه المصرى فى تلك الأيام.. حطم كل الحواجز الاجتماعية ، ووصل إلى الوزارة والسلطان والجاه ، ومع ذلك أحس بأنه لم يصل إلى شىء ..

كان يخوض المعارك العنيفة مع الإنجليز وأذنابهم فى وزارة المعارف ، ومع ذلك فقد كانت جرائد «اللواء» و«الأهالى» و«الجريدة» تحمل عليه فى عنف وتتهمه بمعاونة المستعمر .. لقد تركت الصحف كل زملائه الوزراء من أبناء الشركس والألبان والأتراك، ووجَّهت هجومها إليه وحده .. لماذا ؟! .. كان هذا يحيِّره ويضيِّق صدره ، وكان يتعجب من محررى هذه الصحف ـ ما بين رجال الحزب الوطنى ورجال حزب الأمة ـ كيف يجيزون لأنفسهم أن يتهموه بمحاربة اللغة العربية ، وما هو إلا فلاَّح عربىّ مصرىّ أزهرىّ ..

ضيق سعد يظهر فى صورة سخط على مواطنيه .. أحس أنه يسعى لخيرهم ، وهم يسعون لهدمه.. مثل هذه الأزمة ملأت نفس «بسمارك» أيام كان يعمل سفيراً لبروسيا فى باريس : كان شديد الطعن على البروسيين والضيق بهم .. كتب الأمير برنارد فون بولوف Bernhardt Von Bullow فى مذكراته يقول إن القيصر فردريك ويليام ، عندما استدعى بسمارك ليجعله مستشاراً لبروسيا ، قال له: « .. ولكنك أيها الأمير أوتو إدوارد ليوبولد بسمارك تهاجم البروسيين فى عنف ، فماذا يضايقك منهم؟» . فأجاب: « نعم ، لأنهم لا يضعون أنفسهم فى الموضع الذى يستحقونه !..» . فقال القيصر: « والآن؟ .. » فأجاب: «الآن ستضعهم جلالتكم وخادمكم المخلص فى مكانهم على خريطة أوربا!» ..فقال القيصر: « حسناً ، ولْنَسِرْ على مهل...».

يحدثنا سعد فى مذكراته عن ثورته على موظفيه فى الوزارة فيقول: «.. وكل موظف خاطبنى كنت أُعنِّفه وألومه لوماً شديداً على تخوُّفه منى وانكماشه عنى وانبساطه لدانلوب ، ولعنت كل من لاقيت منهم لعنات شديدة ، ومما قلت لهم: إنكم لم تساعدونى على القيام بواجباتى ، بل تجتهدون فى عرقلة مساعىّ. اعلموا أنكم إذا استمررتم على هذه الطريقة فلن تنالوا منى إلا العقاب الشديد. إنى الآن صبرت ، ولكنَّ لكل شىء حداً . قلت ذلك بأعلى صوتى وبأشد انفعال» [1].وهذا يفسر لنا سبب غضبه على بعض مواطنيه فى هذه الحقبة من حياته.

بل إنه يقف حائراً أمام شعوره هذا نحو مواطنيه ، فيكتب فى مذكراته بتاريخ

(١) كان ذلك فى فبراير ١٩٠٨م. رواه عبد الخالق لاشين ، ص٢٤٢.

١٥/ ٧/ ١٩٠٩م ، وكأنه يعتذر لهم فيما بينه وبين نفسه: « .. ولا أستطيع أن أفسر سبب الاشمئزاز الذى أشعر به عندما أقابل بعض مواطنىّ ، هل سببه التأثير السيِّئ الذى خلَّفه عندى نقد بعض الجرائد المعادية والسيِّئة النيَّة ، أو لأنى أتذكر العبء الثقيل الذى كنت أتأوَّه من حمله فى بلدى » (١).

وفى هذه الظروف نجد اندفاع سعد نحو القمار والتدخين شديداً ، فهو يلعب القمار حتى يخسر معظم ثروته ، ويدخن بشراهة ، « ويزجُّ الدخان فى صدره زجّاً» ، وهذه كلها مظاهر للرغبة فى تحطيم النفس ، وذلك بدوره ناشئ من اليأس ، يأس الإنسان عندما يحسب نفسه وصل إلى آخرة الطريق ثم يتبين أنه لم يصل إلى شىء..

المال لم يُرْضِ مطالب نفسه فمضى يبدده بصورة يخجل هو منها ، والوزارة لم يَجْنِ منها إلا الألم والتعب والشعور بنكران الجميل. فهذا الرجل ـ الذى كان يملك فى سنة ١٩٠٣م فوق الأربعمائة فدان ، علاوة على بيته الذى بناه فى شارع الإنشا وكلَّفه فوق الأربعة آلاف جنيه ـ يكتب فى مذكراته فى ٢٥ مارس١٩١٢م: «.. أصبحت منقبض النفس ضائق الذرع . ولم أنم ليلى ، بل بتُّ طوله تساورنى الهموم والأحزان ، وأتنفس الصعداء على ما فرط منى من اللعب وضياع الأموال التى جمعتها بكد العمل وعرق الجبين وصيرورتى فى حال سيئة . ولقد كان يجب علىَّ ـ خصوصاً فى هذه الأيام التى تزعزع فيها مركزى ـ أن أكفَّ عن ذلك حفظاً للبقية الباقية منه ، واتقاء أن أصير إلى ما أنا فيه من الضيق الشديد ، لأنى صرت مديناً » (٢).

وتزداد أزمته النفسية بعد خروجه من الوزارة ويهون فى نظره كل ما وصل إليه ، فيكتب فى مذكراته فى ديسمبر ١٩١٢م: « .. إن من أعظم المشوِّقات (للوزارة) المرتب ، وهو ـ فى الحقيقة ـ مبلغ عظيم ، ولكنى لم أنتفع منه بشىء ، ولم أستشعر بأن ضخامته وسَّعت علىَّ من ضيق أو رفعتنى من ضعة أو زادتنى بسطة فى الملك أو لذة فى العيشة.. فأكلى هو أكلى لم أزد عليه ، ولم أتأنق فيه صنعاً ، ومركبى لم يتغير ، وملكى نقص

---

(١) رواه أيضاً عبد الخالق لاشين ، ص٢٣٦. وأعتقد أنه مترجم عن الفرنسية ، وكان سعد يضع فى مذكراته أحياناً عبارات فرنسية . والترجمة على عهدة المؤلف ، وقد لاحظت عنده قصوراً واضحاً فى معرفته بهذه اللغة.

(٢) رواه عبد الخالق لاشين ، ص٢٣٣.

٢٠٠ فدان ، وحملت ديناً بعد أن كان جيبى عامراً بالمال». وقال قبل ذلك بصفحات: «.. والله يعلم أن الوظيفة لم تكسبنى جاهاً ولم أبحث عن أن أستفيد منها بشىء سوى حسن الأحدوثة والعمل لخير الناس ، ولكنى لم أوفَّق إلى ذلك ، لأن أيدى النظَّار ـ فى الحقيقة ـ مغلولة بغلَّين ومرهونة بفعلين : شهوات السلطة السياسية وسياسة الدولة المحتلة ، وإرضاء كل منهما صعب على صاحب الذمة والضمير .. ولقد أردت ـ فى كثير من الأحيان ـ أن أُوسِّع من ذمَّتى وهممت أن أُميت ضميرى ، فلم أُفلح ، بل كنت كلما حاولت ذلك ضاق خناق الذمة وثار الضمير ، وتشددت فى الأمر كثيراً.. » (١).

ويبلغ به اليأس إلى درجة أنه يكتب فى سبتمبر ١٩١٦م: «.. يحسن بالذى فقد أصدقاءه ، ولم يكن له ولد يرجوه ، ولا امرأة يعشقها ، ولا وطن يسعى فى رفع مقامه ، ولا آخرة يعمل لها.. أن يرحل عن هذه الحياة ! » (٢).

إن سعدًا يشكو هنا من ضياع كل شىء ، ويتألم لأنه لا يجد له وطنًا يخدمه ، لأن الظروف القائمة لا تسمح بخدمة هذا الوطن ..

• ثم وجد نفسه وعرف طريقه:

والفكرة القائمة وراء هذا التفكير ، أو الشىء الضائع الذى كان يبحث عنه هو وطنه، ولهذا نجده ـ بعد خروجه من الوزارة ـ يتجه اتجاهًا جديدًا جدًا ، اتجاه ترشيح نفسه للجمعية التشريعية. وهنا يبدأ سعد حياة جديدة ، فهو يتزعم المعارضة ويتحدث فى حرية عن مصالح الوطن والناس .. هنا نرى سعدًا فى طريقه ليجد وطنه ، « ليسعى فى رفع مقامه » .. وفى الطريق إلى وطنه وجد نفسه..

وكذلك كانت الأمة المصرية نفسها تبحث عن نفسها فلا تجدها ، كانت مضيَّعة بين سلطة الاحتلال ومطامع الخديو واستغلال أهل الحكم ونهب الأجانب ..

هنا ـ تحت سقف هذه الجمعية ـ عرف سعد طريقه وتحدَّث بحرية لم يكن يستطيعها وهو وزير.

---

(١) نفس المصدر ، ص ٢٣٩.

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٤١.

لقد لامه بعض خصومه [1] ، لأنه لم يطالب بالاستقلال ولا فكَّر فى الدستور أيام كان وكيلاً للجمعية التشريعية . ولكن هل المطالبة بالاستقلال والدستور تكون فى جمعية صغيرة محدودة المجال تسير عليها الدولة ؟ إن طلب الاستقلال ينبغى أن يوجَّه إلى المحتل فى وجهه ، ويُطلب من المجتمع العالمى كله ، وهذا ما فعله سعد فى وقته عندما انتهت الحرب وترددت فى الدنيا صيحات الحرية وحقوق الشعوب وتقرير المصير. هنا يتخطى سعد كل الحواجز ويقتحم الطريق المسدود فيزيل سدوده ، هنا تنتهى أزمة سعد وأزمة مصر ، فيندفع فى طريقه ـ والأمة معه ـ إلى آفاق بعيدة ودنيا جديدة ، آفاق الصراع فى سبيل الوطن ودنيا الأمم الحرة المناضلة..

بعد خطاب سعد فى دار حمد الباسل ، وخطابه فى جمعية التشريع والاقتصاد السياسى ، انفتح باب الثورة على مصراعيه.

وكانت عملية جمع التوكيلات للوفد نداء للأمة كلها لدخول الميدان ، وقد دخلته بصورة ما كان يتوقعها أحد ..

لأن المنادى كان يجمع فى شخصه خصال طبقات مصر كلها ، فهو ابن فلاَّح ، وأزهرى ، وأفندى ، ومحامٍ ، وقاضٍ ، وكاتب ، وفقيه ، ومستشار ، ووزير ، ونائب عن الشعب .. كل ذلك كانه سعد فى حياته ، فلكل قطاع من قطاعات الأمة نصيب من كيانه ، وبهذا النصيب استجاب إليه كل قطاع. وهو رجل مكتمل الشخصية ، واسع التجربة ، ناصع السيرة..

والأمم ـ بطبعها ـ تحس بمن يحبها فتستجيب له وتلقى بثقتها بين يديه ، وتحس بمن لا يحبها الحب الصادق الوفىَّ فتنصرف عنه ، وصاحب هذه الملاحظة الحكيمة هو المؤرخ الجليل محمد شفيق غربال.

ولقد استجابت الأمة لنداء سعد استجابة كاملة ، بعد خطبته فى دار جمعية التشريع والاقتصاد السياسى فى ٧ فبراير ١٩١٩م.

---

(١) ومن أولئك الخصوم السيد عبدالخالق لاشين مؤلف الكتاب الذى اعتمدنا عليه فى رواية فقرات من مذكرات سعد ، لم يجد هذا المؤلف فى سعد لمحة واحدة من خير أو حسن نية أو صدق أو إخلاص : وهذا الموقف المغالى فيه غريب من شاب المفروض أنه يكتب بحثاً علمياً . ولا نعتقد أن سعداً تجرَّد من كل فضيلة على هذا النحو ، حتى ذكاء سعد يراه المؤلف دهاء ومكراً !.

حتى حسين رشدى ـ ذلك الأرستقراطى الذى عاش عمره كله على كرسى من ذهب، والذى استدعاه اللورد كرومر من باريس ليحكم مصر باسم الاحتلال ولصالح الاحتلال ـ حتى هذا الرجل تحرَّك بعد طول ركود ، وأيد نداء سعد واستقال فى ٢ ديسمبر ١٩١٨م احتجاجاً على الإنجليز ، وقد رفض السلطان فؤاد ـ أى: الإنجليز ـ قبول استقالته ولكنه أصر حتى قُبلت فى أول مارس ١٩١٩م . وجرى البحث حثيثاً عن رجل ميت الضمير ، ليتولى تأليف وزارة جديدة تؤيد المحتل ، فيما رآه من أنه لا ضرورة لسفر ممثلى الشعب المصرى إلى أوربا ، لعرض قضية بلادهم على مؤتمرات الصلح ، وكان هناك كثيرون من أهل الحكم التقليدى مستعدين للقبول ، لأنهم ليسوا مصريين أو لأنهم لا يشعرون بأنهم مصريون ، لكنهم خافوا غضبة الأمة ، وكانت الغيوم قد أخذت تتراكم فى السماء..

ولم يتحرك عظمة السلطان ، برغم الخطاب الذى وجَّهه إليه الوفد ؛ وكان من المستحيل أن يتحرك أحمد فؤاد ، لأنه كان مشغولاً إذ ذاك باستكمال مظاهر عظمته ، وأهمها تكديس المال العريض..

وفى ٦ مارس أنذرت السلطة العسكرية البريطانية رجال الوفد بالعقاب الشديد إذا هم استمروا فى نشاطهم:دعاهم الميجور جنرال واطسون ووزع عليهم الإنذار وتلاه عنه أحد مساعديه ، وعندما أرادوا الكلام قال لهم عبارته المشهورة : « لا مناقشة ! » ، وانصرف..

وفى ٨ مارس نُفى سعد وثلاثة من زملائه ـ هم: حمد الباسل ومحمد محمود وإسماعيل صدقى ـ إلى مالطة..

وفى اليوم التالى لاعتقالهم ـ ٩ مارس ـ بدأت الثورة..

بدأت بإضراب الطلبة ، وكان أول المضربين طلاب مدرسة الحقوق وبعض المدارس العالية.

وفى اليوم التالى ـ ١٠ مارس ١٩١٩م ـ امتد الإضراب والمظاهرات حتى شملت الأزهر وكل مدارس القاهرة.

وفى أعقاب الطلاب سارت جماهير الشعب الغاضبة ، ولم تستطع هذه الجماهير

ضبط عواطفها فحدث بعض التخريب والتحطيم..

وفى ذلك اليوم سقط أول شهداء الحرية ، وهما مواطنان أحدهما شاب والآخر غلام ، وجد عبد الرحمن الرافعى اسميهما فى سجل وفيات قسم السيدة زينب وموصوفين فيه بأنهما مجهولان . وقد أصاب عبد الرحمن الرافعى فى ملاحظة أنهما رمز على شهداء معركة الحرية المصرية المجهولين ، وما أكثرهم..

كانت هذه الاستجابة الشعبية لنداء الحرية استجابة طبيعية صادرة عن نفوس مخلصة، فما رتَّب للإضراب أحد ولا دعا للمظاهرات داعٍ ، وإنما هى الفورة النفسية الشعبية استجابت من تلقاء نفسها للنداء.

ويوماً بعد يوم ، امتدت نيران الثورة فشملت كل شىء فى مصر : لقد عرفت مصر طريقها وسارت فيه ، وإنه لمما يملأ النفس إعجابًا بهذه الأمة أنها خرجت عزلاء تماماً ، لتواجه مستعمراً غاصباً مدجَّجاً بالسلاح دون أن تهاب الموت ، وما خُذلت أمة تحدَّت الموت دون خوف..

فى كل يوم كان الألوف يخرجون ليواجهوا الموت فى سبيل مصر ، معظم أولئك الذين خرجوا من بيوتهم فى الصباح للهتاف باسم مصر ، ماتوا شهداء أو ضُربوا أو سُجنوا أو فُصلوا من وظائفهم أو شُرِّدوا من بلادهم..

ولكن فى اليوم التالى خرج آخرون غيرهم ، وساروا فى طريق مصر وهتفوا وتحدَّوا الموت..

وتعطلت المواصلات ، ثم أضرب الموظفون عن العمل ، ثم المحامون ، ثم المحامون الشرعيون ، ثم عمال العنابر.. وتوقفت عجلة الحياة فى مصر..

وفى ١٦ مارس ١٩١٩م كانت مظاهرة السيدات . للمرة الأولى فى تاريخ العرب والمسلمين تخرج النساء إلى عرض الطريق مطالبات بالحرية لأمهنَّ مصر ، وأبدينَ من البسالة ما هزَّ وجدان المواطنين..

وكتبت كبيرات نساء مصر احتجاجاً يفيض بالصدق والعاطفة والقوة ، وقدَّمنه لممثلى الدول الأجنبية فى مصر..

وكانت وجهة المظاهرات كلها بيت الأمة ، بيت سعد زغلول..

وماذا كان يطلب المصريون فى بيت الأمة وقد خلا من صاحبه ؟

دون شعور كانوا يتجهون نحو وجهة واحدة : من هنا صدر النداء ، وفى هذا الطريق نسير..

وابتداء من١٢ مارس ١٩١٩م بدأت جماعات من أهل القرى تقطع خطوط سكة الحديد . لم يكن القصد التخريب قطعاً ، وإنما هى وسيلة لإسماع الصوت والمشاركة. عندما يُقطع الخط الحديدى فى موضع تضطرب المديرية ، ويبلغ الأمر دار المعتمد البريطانى وقائد قوات الاحتلال ؛ وهذا هو المهم.

ونشطت السلطة العسكرية فى عقاب القرى التى قطع أهلها خطوط سكة الحديد ، وأنذرت بمحاصرة كل قرية تفعل هذا وإحراقها بأهلها..

وبرغم ذلك تقطعت المواصلات ، ووجد المحتل نفسه وجهاً لوجه أمام أمة بأسرها تعلن عليه العصيان وتطالبه بالخروج من البلاد.

وكلما اشتدت السلطة العسكرية فى إجراءاتها ، ازدادت الثورة عمقاً واتساعاً وعنفاً واندلاعاً..

وفى ١٧ مارس ١٩١٩م كانت المظاهرة الكبرى التى سارت فيها القاهرة كلها بالفعل ، مدينة بأسرها خرجت عزلاء لتواجه المحتل وتعلنه بأنها تريد الحرية ولا شىء إلا الحرية..

هذه المظاهرات كلها لم يكن يرتِّبها أحد. كان الناس يتلاقون ويتجمعون دون سابق موعد. كانوا يستجيبون لنداء مصر من تلقاء أنفسهم. كان قادة الجماهير يتلاقون فى مقهى أو دار أو فناء مدرسة أو ميدان أو عند الجامع الأزهر.. ويبدأ أحدهم الهتاف فيتجمع الناس ، ثم يقف أحدهم خطيباً فيهاجم المستعمر وينادى بالحرية ، ولا ينتهى الخطاب حتى يكون الألوف قد تجمَّعوا ، ويبدأ المسير والهتاف ..

ويدهش الإنسان إذ يقرأ أن الجماهير نظَّمت «بوليساً وطنياً» له شاراته الخاصة ، للمحافظة على نظام المظاهرات ، والحيلولة بين العناصر المخرِّبة غير المسئولة والاندساس فى صفوف المتظاهرين ..

وخرج الجنود الإنجليز عن هدوئهم ، وانطلقوا يعبِّرون عن حقدهم على المصريين بالانقضاض على المقاهى ، وضرب الجالسين فيها ضرب عشواء دون حساب ..

وشملت الحركة مصر كلها : القاهرة والإسكندرية وبورسعيد ودمنهور ورشيد وطنطا وبركة السبع وقلّين ودسوق وسمنود وزفتى وكفر الشيخ والمحلّة الكبرى وشبين الكوم ومنوف وتلا والمنصورة ودمياط وميت غمر والفيوم والواسطى وإطسا والمنيا وأسيوط وديروط ودير مواس وجرجا وقنا وأسوان .. مصر كلها.

فى كل مظاهرة كان يسقط شهداء وجرحى ، وقد قدَّر عبد الرحمن الرافعى عدد شهداء هذه الثورة القومية الكبرى بثلاثة آلاف ، لم يخلُ من دمهم الزكى بلد من بلاد مصر..

واهتزت بريطانيا لهول الثورة الشاملة ، وعزلت السير ريجنالد وينجيت فغادر مصر فى ٢١ مارس ، وعيَّنت مكانه الجنرال إدموند هنرى هاينمان أللنبى معتمداً بريطانياً ونائباً للملك ، فوصل إلى مصر فى ٢٥ مارس ١٩١٩م ، وبدأ سياسة القمع والعنف والمذابح..

واستمرت الثورة غير عابئة بنائب الملك .. فما كان للمذابح من أثر إلا أن تزيد الثورة اشتعالاً ، وتثبت أن بقاء المحتلين مستحيل..

انطلق جنود الإنجليز يفتكون بالمصريين العزل ـ أحياناً دون مبرِّر على الإطلاق ، كالهجوم على عرس وإطلاق النار على الناس . ووقعت مذابح العزيزية والبدرشين فى٢٥ مارس ١٩١٩م ، حيث انقضَّ الجنود الإنجليز على أهل القرى فى منتصف الليل، وأخرجوهم من بيوتهم ورموا نفراً منهم بالرصاص ، وحدث مثل ذلك فى نزلة الشوبك..

وفى ٧ أبريل ١٩١٩م أعلن أللنبى إخفاقه أمام ثورة الشعب ، وصدر قرار الإفراج عن سعد وصحبه المنفيين فى مالطة.

وكان ذلك أول نصر تكسبه مصر فى معركة الحرية بعد قيام ثورة ١٩١٩م.

وبالإفراج عن سعد وصحبه دخلت الثورة فى عهد جديد.

ولسنا هنا بسبيل حكاية أحداث الثورة ، فهذا ليس موضوع هذا الفصل ، ويستطيع القارئ أن يتتبعها فى سلسلة كتب عبد الرحمن الرافعى عن الحركة القومية فى مصر ، وهو راوية أمين ومؤرخ مصرى ، تابع فى صدق ودأب ـ يدعوان إلى الإعجاب ـ تقليد مدوِّنات تاريخ مصر ، التى بدأت بعبد الرحمن بن عبد الحكم..

والمهم لدينا أن هذه الثورة كانت هزة عنيفة صدرت من أعماق مصر كلها ، فأما الذين كانوا أيقاظاً من أبنائها فقد ساروا فى طريق الحرية الجديد ، وأما الذين كانوا نياماً فقد نهضوا وأخذوا مكانهم فى ركب النهوض..

أفاقت مصر إلى نفسها من نوم القرون ، وتفجَّرت كوامن القوة فى كيانها فى صور شتَّى ، فلم تبق ناحية من نواحى النشاط إلا شملها النهوض والتجديد.

وتجلَّى للناس أن كيان مصر كان ينطوى على عبقريات ومَلَكَات صافية خلاَّقة فى كل ميدان ، وكأنما كانت مصر مارداً فى قمقم حبيساً من عشرات القرون ، فلمَّا زال السداد خرج المارد وحجب عين الشمس ، وقلبَ أرض مصر وأرض العروبة كلها رأساً على عقب..

وهذا المارد هو جيل ثورة سنة ١٩١٩م ، ممن فجَّرت الثورة كوامن العبقـرية فى كيانهم ، فأتوا بكل عظيم من الابتكار عجيب .

***

رجال المعركـة

فجَّرت الثورة كوامن العبقرية فى كيان مصر ، وأخرجت للدنيا عباقرة فى كل مجال من مجالات الحياة القومية ، حتى تلك التى ما كان يخطر على البال أن مصر تبدع فيها ، كالاقتصاد وشئون المال وأعمال المصارف؛ ظهر جيل من الاقتصاديين يقودهم محمد طلعت حرب فأنشأوا بنك مصر وشركاته تباعاً.

وبينما كان سيد درويش ـ ذلك الشيخ الإسكندرى الذى لم يقرأ النوتة فى حياته قراءة صحيحة ـ يلحِّن أغانى للثورة ورجالها ويتطلع إلى تلحين الأوبرا ، وهى شىء مختلف جداً عن طبيعة الموسيقى العربية ، موسيقى الطرب الإستاتيكى الجنسى ، وبينما كان سيد درويش يخطو هذه الخطوة التى لا تُصدَّق ، كان محمود مختار يستلهم تماثيل أجداده ليطلع على الناس مَثَّالاً عبقرياً: طاوياً القرون القهقرى ملتمساً روح مصر الخالدة وباحثاً عن الإزميل الذى تركه جده المثَّال المصرى القديم من قرون طويلة ليتابع به عمله..

وبينما كان أحمد شوقى ينظم مدائحه الباردة الضعيفة النبض قبل الثورة ، إذا بحرارة الثورة تسرى إليه فتدبُّ فى شعره حرارة لم يعهدها هو نفسه ، ويخطو ـ وهو شاعر القصر المُترف المدلل ـ ليقول من أعماق نفسه شعراً قومياً قوىَّ النبض ؛ يجمع فيه قوة نفسه وعبقريته الشاعرية كلها ، وتعود الثورة بالشعر العربى إلى مستويات أبى تمام والبحترى والمتنبى وأبى العلاء..

ومن صميم الريف ، من نواحى «السنبلاوين» تخطو نحو القاهرة شابة ذات صوت جميل لتغنى وتُنشد المواويل والمدائح النبوية ، ويجرفها مد الثورة فإذا بها تسمو فوق كل مستوى عرفه الإنشاد العربى من قبل ، وتخطو على مسرح الحياة العربية مثلاً فريداً للمغنِّية ، يختلف عن المطربة القديمة البدينة الغانية اللعوب ، وتتجلَّى للناس مطربة العصر الحديث ـ أم كلثوم إبراهيم ـ فى ثوب مُنشدة ذات مستوى فنى وإنسانى رفيع..

وفى عالم الطب تظهر أسماء على إبراهيم وسليمان عزمى ومحمد صبحى وعلى رامز وإبراهيم فهمى المنياوى وجورجى صبحى ونجيب محفوظ وغيرهم كثيرين ، ممن ارتفعوا بالطب المصرى إلى أعلى مستويات العصر..

ومن روما عاد إلى مصر سنة ١٩٢٢م شاب وسيم عامر القلب بالفن وحافل الرأس بالطموح لينشئ مسرح رمسيس ، وتبدأ أسطورة يوسف وهبى التى صنعت لفن التمثيل والمسرح فى مصر عالماً فنياً متدفق الحيوية فيَّاضاً بالخلق والإبداع . وفى الطريق الذى شقَّه مسرح رمسيس يظهر مسرح فاطمة رشدى ومسرح الريحانى ، وتتألق أنوار شارع عماد الدين باهرة تجتذب الألوف كل ليلة..

ومن صميم الصعيد أقبل طه حسين ، شاباً ريفياً أزهرياً ، يتحسس طريقه فى صعوبة وعسر ، كأنه يشق بعصاه نفقاً فى جبل شامخ أشمّ ، ويشق لمصر وأمم العروبة كلها طريقاً واسعاً من العلم والفهم وحرية الفكر والثقافة والفن الأدبى.

ومن قلب أسوان يُقبل عباس محمود العقاد ، شاباً نحيلاً يتوقَّد ذكاء وعزماً وموهبة وعزة ، فينضمُّ إلى موكب سعد زغلول ، ويمسك القلم ويكتب ، فيتجلَّى عن كاتب من أعاظم الكتَّاب والمفكِّرين فى تاريخ العرب كله..

وهذه مجرد طلائع وأمثلة.. والقائمة طويلة ، والمجالات التى فتحها جيل ثورة ١٩١٩م تشمل نواحى الحياة القومية كلها..

• خصائص جيل ثورة ١٩١٩م:

ورجال هذا الجيل ليسوا كلهم من عمر واحد ، بل إن أعمارهم ليست متقاربة فى كثير من الأحيان . فبعضهم ـ مثل سعد زغلول ـ ولدوا فيما بين سنتى ١٨٥٦و١٨٦٠م ، وبعضهم الآخر ولدوا أوائل القرن العشرين ، ولكنهم جميعاً يشتركون فى أمر واضح هو أنهم كانوا كلهم فى سن العمل والجهد والكفاح عندما قامت الثورة ؛ أو فيما بين سنتى ١٩١٩و ١٩٢٥م بتحديد أوسع شمولاً ، يستوى فى ذلك من كان منهم بين هذين التاريخين فى سن العشرينيات مثل توفيق الحكيم (ولد ١٩٠٣م) ومحمد عوض محمد (١٩٠١م) وإبراهيم ناجى (١٨٩٨م) ومحمود طاهر لاشين (١٨٩٧م) ومحمود تيمور (١٨٩٤م) وأحمد رامى (١٨٩٢م) وزكى مبارك(١٨٩١م) وإبراهيم عبد القادر

المازنى (١٨٩٠م) ، أو من كان أكبر من ذلك بقليل أو كثير مثل عباس محمود العقاد (ولد سنة ١٨٨٩م) وعلى عبد الرازق (١٨٨٨م) وسلامة موسى (١٨٨٨م) ومحمد حسين هيكل (١٨٨٨م) وأحمد أمين (١٨٨٧م) ومصطفى عبد الرازق (١٨٨٢م) وأحمد لطفى السيد (١٨٧٢م) وأحمد شوقى (١٨٦٨م) ..

كل أولئك إما أدركتهم الثورة وهم فى عنفوان نشاطهم ، فتأثروا بها وأخذتهم فى تيارها وبدأت فى عملهم عهداً جديداً ، أو وقعت وهم بعد فى مطالع سنوات العمل والإنتاج فرسمت لهم طريق العمل ووجَّهت إنتاجهم كله وأعطته طابع الثورة والتجديد..

ويستوى فى هذا أيضاً مَنْ عملَ على إيقاد شرارة الثورة ، ومَنْ مَهَّدَ لها أو حمل رايتها فى أدوارها الأولى (من أمثال سعد زغلول وعبد العزيز فهمى وعلى شعراوى وأحمد لطفى السيد) ، أو دخل ميدانها فى أدوارها التالية (مصطفى النحَّاس وسينوت حنا وواصف غالى وعبد الحميد أبو هيف وغيرهم) ، ومَنْ عمل فى الميدان السياسى مباشرة ، أو عمل بروح الثورة فى ميدان آخر من ميادين النشاط القومى بعد ذلك ؛ فإن هؤلاء ـ جميعاً ـ يدخلون فى اتجاه واحد ، هو اتجاه خدمة مصر والعمل على تحريرها وتحرير شعبها ، والنهوض بها وإعلاء شأنها بين الأمم .. وإلى جهود هؤلاء ـ جميعاً ـ يرجع الفضل فيما وصلت إليه مصر من تقدُّم واضح على غيرها من البلاد التى كانت خاضعة للاستعمار (وهى معظم إفريقيا وآسيا) خلال العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين..

والحق أن مصر أصبحت ـ بفضل جهود هذا الجيل ـ فى طليعة أمم الشرق كلها ، أصبحت المثل الذى تحتذيه وتسير فى طريقه الأمم الأخرى . وخلال هذه الفترة برزت القاهرة كمركز من أكبر مراكز التحرر فى العالم ، وإليها وفدت جماعات المجاهدين والمطالبين بالحرية لبلادهم ، فاتخذوها مركزاً لنشاطهم وجهودهم للتحرير ، مستفيدين من الحرية النسبية التى كسبها شعب مصر نتيجة لثورة ١٩١٩م.

***

وإذا نحن تأملنا سير أعلام ذلك الجيل وما قاموا به من جهود ـ أياً كان ميدان نشاطهم، فى السياسة أو الطب أو الأدب أو العلوم أو الفنون الجميلة ـ تبيَّنَّا أنهم يمتازون بخصائص واضحة أهمها :

● أولاً: الحب العميق الصادق لمصر ، والاعتزاز الشديد بها وبحضارتها وماضيها وفضلها ، والإيمان الراسخ بأنها لابد أن تتحرر تحرراً كاملاً وتعود إلى طليعة أمم العالم.

هذا الإيمان بمصر نجده عند الزعماء السياسيين فى تصرفاتهم وخطبهم ، ونجده عند أهل الثقافة فى كتاباتهم ، ونجده عند أهل القانون فى أبحاثهم ودراساتهم ، ونجده عند رجال الطب والعلوم وعند رجال الفنون على السواء.

فقبيل ثورة ١٩١٩م كان اليأس الشامل قد خيَّم على البلاد أواخر الحرب العالمية الأولى ، وقد تفرَّق زعماء الحزب الوطنى وخفت صوت محمد فريد وهو يجاهد وحيداً ـ تقريباً ـ فى أوربا ، مخلِّفاً وراءه فى مصر رجالاً ذوى إخلاص شديد ، ولكن قدرتهم على الاتصال بالجماهير كانت قليلة ، ثم إن قوتهم الدافعة كانت محدودة ، وقد تحولت المسألة المصرية فى أيديهم إلى قضية أمام محكمة غير منظورة ، وهم فى تصرُّفهم فى تلك الأيام أشبه بالمحامى الذى يدبِّج المذكرات القانونية المدعمة بأوثق الأسانيد وأقوى الحجج ، ويقدِّمها إلى قاضٍ لا يقرؤها ولا يريد أن يقرأها ، ولا يزال يسوِّف ويؤجِّل ويتلذَّذ بسعى المحامى بين يديه بالمذكرات..

وأما أهل الحكم ـ وعلى رأسهم السلطان فؤاد ـ فقد اطمأنوا إلى أنهم موظفون لدى الحكومة البريطانية ، فهى تختارهم وتستخدمهم وتأجرهم وتحميهم ، وفى طريق الطاعة والخضوع والاستسلام سارت ـ أو قعدت ـ طوائف أهل البلاد .. وعندما تقرأ كتاب اللورد كرومر المسمى « مصر الحديثة» ، لا تحس ببارقة أمل فى أن هذا الشعب ستقوم له قائمة يوماً ما..

أما بعد أن قامت هذه الثورة ، فقد امتلأت النفوس إيماناً بمصر وحبّاً لها ، وسَرَى الإحساس الوطنى حتى مسَّ قلوباً كانت أبعد ما تكون عن الإحساس به . فبينما كان أهل الغناء قبل الثورة يُنشدون أغانى كلها سقوط وانحطاط وجنس لا يعرف الحياء ، أصبحوا بعد الثورة يغنُّون أغانى وطنية كلها حب لمصر وتمجيد لثورتها ورجالها ؛ حتى

المسارح الصغيرة فى روض الفرج والأحياء الوطنية ، كانت ترفع ستارها عن فتيات يتوشَّحنَ بعلم مصر ويلوِّحنَ بأعلام مصرية فى أيديهنَّ ، وهنَّ ينشدنَ أناشيد وطنية . وظهر على لافتات المحلات التجارية الصغيرة رسم العلم المصرى أو رسم علمين مصريين متعانقين ، ونظم محمود مراد الأستاذ بالمدرسة الخديوية إذ ذاك نشيد « اسلمى يا مصر» ورددَّه أبناء مصر جميعاً ، ورفع المصريون جميعاً رؤوسهم ، وامتدت أمامهم الآمال ، وأصبحت هيئات البلد كلها ـ مثل النقابات بشتَّى مستوياتها والمجالس البلدية والقروية ـ هيئات وطنية ، وحلَّت أخلاق العزة والشهامة والنصر محل أخلاق الذلَّة والخوف والهزيمة ، وانتشرت بين الشباب « موضة» رباط الرقبة الأخضر المزين بالهلال والنجوم على صورة العلم المصرى ، وتعانق المسلمون والأقباط ، وخطب القسس فى المساجد ، وخطب الشيوخ فى الكنائس ، وكان الزائر لمصر فى أواخر ١٩١٩م وما بعدها يشعر أنه فى بلد بُعث بعثاً جديداً..

وكان من عجيب المصادفات أن اكْتُشِفَ قبر« توت عنخ آمون» فى تلك الآونة ، وظهرت إلى الوجود روائع الفن المصرى والحضارة المصرية التى هزَّت العالم كله فى ذلك الحين ، وأكدت فضل مصر على حضارة الدنيا واستحقاقها الكرامة والاحترام ، فضلاً عن الاستقلال الذى نالته فى ذلك الحين أمم لا تنهض إلى مستوى مصر ، كبعض شعوب البلقان وجمهوريات البلطيق وغيرها ، مما رأى عبث جورج كليمانصو ولويد جورج أن يخلقه من أمم هى ألوان على الخريطة ولا شىء وراء ذلك..

لا عجب ـ إذن ـ أن يزداد أهل مصر اعتزازاً بوطنهم ، وأن تجد مدرِّسى التاريخ واللغة العربية فى المدارس يجعلون دروسهم محاضرات فى الوطنية.. وكل من كانوا فى المدارس الابتدائية والثانوية فى ذلك الحين يذكرون مدرِّسى هذه الفترة (١٩٢٠ ـ ١٩٣٠م) وما كان لهم من الفضل فى إنشاء جيل يحب مصر ويعتز بها ، وتمتلئ نفسه بأحلام الحرية وآمال المستقبل العظيم.

لهذا نجد المتحدثين باسم مصر فى هذه الفترة يتحدثون مع الإنجليز فى عزَّة وترفُّع ، بل من مركز قوة ! ولقد وقفت مصر كلها من اللجنة التى أوفدتها انجلترا إلى مصر برياسة اللورد ملنر وزير المستعمرات فى ٧ ديسمبر ١٩١٩م موقف مقاطعة تامة ، أجمعت عليه هيئات البلاد جميعاً (فيما عدا القصر السلطانى ووزارة يوسف وهبة باشا

التى تألفت فى ٢١ نوفمبر ١٩١٩م لتسهيل مهمة اللجنة) ، لأن لجنة ملنر وفدت على مصر لبحث النظام الذى يلائم مصر تحت الحماية ، ودراسة إمكانية إنشاء حكم ذاتى (محلّى) يصرِّف الأمور الجارية فى البلاد ، مع بقاء مصر جزءاً من الإمبراطورية البريطانية . ولقد مكث اللورد ملنر ولجنته فى مصر ثلاثة أشهر ، دون أن يتصل بها أحد من أهلها ، ورحلت عنها فى ٦ مارس ١٩٢٠م وهى لا تصدِّق أن هذا الشعب الأعزل الأميّ ـ فى الغالب ـ يصل فى الاعتزاز بنفسه والوعى لمصالحه إلى هذا الحد..

وهنا ـ وفى مجال الحب لمصر والاعتزاز بها ـ ظهر بوضوح أن مصطفى كامل ومحمد فريد لم يكونا يتحدثان فى فراغ كما كان يُظَنُّ ، فالكلام الذى كان يجرى على الألسن فى أثناء الثورة وبعدها نثراً وشعراً هو كلام مصطفى كامل ومحمد فريد . وهذا العشق الرومانتيكى لمصر وكل ما فيها ـ الذى أبدع هذان الرجلان فى التعبير عنه ـ انتقل الآن إلى لسان كل مصرى ، وسرى فى النفوس مسرى الدم ، فألهمها ثباتاً ونضجاً وقوة لم تصل إليها أمة من الأمم خارج أوربا وأمريكا الشمالية فى ذلك الحين . وإنك لتجد الأقباط يشعرون بالمهانة التى ألصقها بهم يوسف وهبة عندما قَبِلَ تولِّى الوزارة ، فيجتمعون فى الكنيسة المرقسية فى ٢١ نوفمبر ١٩١٩م برئاسة القمص باسيليوس وكيل البطريركية ، ويعلنون سخطهم على يوسف وهبة وبراءتهم منه ، فقارن بذلك انخداع المسيحيين فى سوريا ولبنان وترحيبهم بالتعاون مع المستعمرين واستجابتهم إلى دعوات تقسيم الشام ، مما أدى إلى تحطيم وحدة الشام تحطيماً كان ضياع فلسطين إحدى نتائجه . ولقد عرف أقباط مصر كيف يحافظون على وحدة بلدهم فى ذلك الظرف العسير ، ودللوا على وطنية عميقة وبُعد نظر جدير بكل إجلال ، وذلك مظهر من مظاهر الحب الخالص لمصر الذى شمل الجميع.

وفى نفس الكنيسة اجتمعت فى١٢ديسمبر ١٩١٩م سيدات مصر مسلمات وقبطيات ، تتقدمهنَّ هدى شعراوى وشريفة رياض ، فأعلنَّ استنكارهنَّ ليوسف وهبة ووزارته.

● والخاصية الثانية هى روح الجد التى شملت الجميع خلال العشرينيات من هذا القرن ، وارتفعت برجل الشارع البسيط إلى مستوى الرؤساء وأهل المسئولية وأصحاب

الوعى الكامل ممن تولوا قيادة الحركة ؛ روح الجد هذه جعلت الناس جميعاً يتصرفون فى حزم واستعداد كامل للتضحية.

فى أعقاب ثورة ١٩١٩م كان معنى التضحية بذل الحياة والمال والوظيفة فى سبيل الوطن دون تردد ؛ فى تلك الأيام كان الموظفون يضربون عن العمل وهم يعرفون أن عقابهم الفصل من الوظيفة ، فلم يكونوا يبالون بذلك مع أنهم جميعاً كانوا فقراء لا يملكون إلا مرتَّب الشهر ، وكان الطلاب يواجهون الإنجليز من مدرِّسيهم ونظَّارهم فى حزم وشجاعة ، وهم يعرفون أن عقابهم هو الفصل من المدرسة وضياع المستقبل وربما الحبس والجَلْد ، وكان المصرى العادى يخرج من بيته ليشترك فى مظاهرة ضد الإنجليز وكأنه ذاهب إلى عمل لابد له من القيام به ، وهو يعلم أنه بذلك يواجه الرصاص والموت.

على سبيل المثال : نقرأ فى كتاب عبد الرحمن الرافعى عن ثورة ١٩١٩م (طـ ٣ سنة ١٩٥٥م جـ ١ ص ٢٢٠ ، ٢٢١) قائمة بأسماء شهداء مظاهرات المنصورة فى ١٤ مارس ١٩١٩م ، فنجد من بينهم ٣ من كتَّاب المصالح ـ أى : من « الأفندية » ـ و٣ من الطلبة ، وفقيهاً ، وعطَّاراً ، و٨ من العمال ما بين بنَّاء وحدَّاد ونجَّار وطبَّاخ وحوذىّ ، وواحدًا من أصحاب الحرف التخصصية الدقيقة (ساعاتياً) ، و٣ من المزارعين وأهل القرى المجاورة .. مات هؤلاء شهداء ، وفى اليوم التالى خرجت مظاهرة أخرى من أمثالهم..

وإننا لنحس بروح الجد والتضحية ، عندما نرى أن أمثال هذه المجازر التى كان الإنجليز يوقعونها بالمصريين ، لم تكن ترهب الناس أو تخيفهم من العمل فى سبيل بلادهم . ففى تلك الأيام كثرت الجمعيات السرية التى يؤلفها الشبان لاغتيال الإنجليز وعملائهم ، بل كان هناك شبان كثيرون يحفزهم الشعور بالواجب نحو الوطن إلى تدبير اغتيال جبابرة الإنجليز وعملائهم ، وكان الواحد منهم يرتِّب العملية ويقوم بها منفردًا وهو يعلم أن مصيره الموت لا محالة ، وهؤلاء هم الفدائيون المصريون الذين أرهبوا الإنجليز.

هذه الروح الجادة نجدها عند كل أهل مصر فى ذلك الحين ، سواء منهم أصحاب

القيادات السياسية ومن يتبعونهم ، وأصحاب الأعمال والمَلَكَات ، وعامة الناس ممن انصرفوا إلى خدمة مصر فى شتَّى الميادين ؛ حتى الذين كانوا يمارسون أعمالهم فى الماضى على الطريقة المتراخية التقليدية ، نجد الحماس يدبُّ فى قلوبهم فيرتفعون بأعمالهم ومستوى تقديرهم لها إلى أعلى مستويات الإحساس بالواجب والقيام به وإتقانه ، ووضع جهودهم فى خدمة مصر لا يطلبون جزاء من أحد . فما من صحفى أو أديب أو فنان أو عامل فى تلك الأيام ، إلا كنت تجده يعمل فى صدق لأنه يشعر بأنه يخدم بلاده ، وما يكاد الرصاص يدوِّى فى الشوارع حتى تجد الأطباء يهرعون إلى تضميد الجرحى وعلاج المصابين..

وما يكاد الإنجليز يطاردون المتظاهرين حتى تُفتح أبواب البيوت لتؤوى الشبان وتحميهم من الرصاص والهراوات ، مع ما فى ذلك من الخطر على الحُرَم وربَّات البيوت؛ فما كان الإنجليز ليترددوا عن اقتحام البيوت وانتهاك حرماتها بحثاً عن المتظاهرين . وخلف أبواب البيوت يسارع أهلها فيقدِّمون الماء والطعام والضِّماد ـ إذا لزم الأمر ـ إلى الوطنىِّ الشاب المجاهد ؛ وكان من المألوف جداً فى تلك الأيام أن تجد ربَّةَ لبيت وأم أولاد لجأ إلى بيتها شاب جريح ، فعُنيت به ثم التفَّت بملاءتها وقطعت المدينة من طرف إلى طرف على رجليها لتُطمئن أسرة الشاب على صحته ؛ وقد وصف إحسان عبد القدوس شيئاً من ذلك بكثير من الصدق والدقة فى أجمل رواياته على الإطلاق : «فى بيتنا رجل»..

ومن المصريين فى تلك الأيام من حفزته الهمة والرغبة الجادة فى خدمة وطنه إلى سلوك طريق جديد يختلف عن طريق حياته الأول ، كما فعل محمد طلعت حرب الذى كان إلى ذلك الحين ينفق وقته فى تأليف كتب فى التاريخ والاجتماع ، مع اهتمام بالأمور الاقتصادية ، فما إن قامت الثورة حتى نجده يندفع نحو الاقتصاد ، فيشترك مع زميليه أحمد مدحت يكن وفؤاد سلطان فى إنشاء بنك مصر فى ٧ مايو١٩٢٠م .. وقد تحمَّست الأمة لهذا المصرف حماساً عظيماً ، فتمَّت تغطية رأس المال المطلوب فى أيام قليلة ، وتسابق المصريون إلى التعامل معه. وتبين بوضوح أن طلعت حرب عبقرية اقتصادية سيَّرت أعمال هذا المصرف بذكاء وقدرة ، والتفَّت حوله طائفة من الشباب

الموهوب ، فإذا ببنك مصر ينمو نمواً يفوق ما كان متوقعاً ، وينشئ مجموعة اقتصادية صناعية تجارية تضم عدداً كبيراً من الشركات أكبرها شركة النسيج بالمحلة الكبرى. وقد غطى نشاط طلعت حرب ومجموعته مساحات شاسعة من الاقتصاد القومى ، تمتد من النسيج إلى التأمين والسياحة والملاحة البحرية والسينما وغيرها.

وما كان هذا الصرح الشامخ ليرتفع إلا على أساس روح الجد التى شملت مصر كلها عقب قيام ثورة ١٩١٩م.

ومثل هذا يقال عن إنشاء الجامعة المصرية التى تأسست سنة ١٩٠٨م كمؤسسة تعليم عال أهلية ، يعمل فيها نفر من هواة العلم والثقافة ، ويشجعها بعض الخلّص إذ ذاك ، مثل الأمير أحمد فؤاد . فلمّا قامت الثورة انتقلت قيادة هذه الجامعة إلى المخلصين من أبناء مصر ، فما لبثت أن تحولت إلى جامعة رسمية نظامية ، تم افتتاحها فى ٧ فبراير ١٩٢٨م . ومن أول إنشائها ظهرت فيها عبقريات علمية حقيقية ، عملت بذلك الجد والإخلاص وشعور الحب الذى تميز به العمل المصرى فى أعقاب الثورة ، ويكفى أن نضرب أمثلة قليلة من العلماء الأجلاّء الذين عملوا فى الجامعة ووضعوا لمصر وبلاد العروبة أساس نهضتها العلمية والفكرية الكبرى : أحمد لطفى السيد وطه حسين ومصطفى مشرّفة وأحمد زكى وأحمد أمين وعلى إبراهيم وعبد الرزاق السنهورى ومحمد الخضرى وعبد الحميد العبادى وشفيق غربال ومحمد عوض محمد ومصطفى عبد الرازق ، وغيرهم ممن لا يتسع المجال هنا لذكر أسمائهم جميعاً.

ومثل هذا الجد نجده وراء نجاح مؤسسات أخرى ذات فضل عظيم فى النهضة الفكرية والعلمية والاقتصادية المصرية ، مثل مسرح رمسيس ومسرح الريحانى ومعهد الموسيقى الشرقية وشركة مصر للتمثيل والسينما وغيرها ، فكل واحدة من هذه المؤسسات قامت على أكتاف رجال مخلصين عرفوا كيف يخدمون وطنهم ويُعلون بنيانه بالجد والإخلاص والصدق . ولم يعرف عالم الفن جماعة عملت بإخلاص وصدق وكفاية كما عملت جماعة يوسف وهبى وعزيز عيد ونجيب الريحانى وروزا اليوسف وفاطمة رشدى ومحمد عبد الوهاب وأم كلثوم ومحمد كريم وعزيزة أمير وجورج أبيض وعبد الرحمن رشدى وأحمد علاّم وحسين رياض ودولت أبيض وزكريا أحمد وفتوح

نشاطى ، وبقية هذا الموكب الحافل من أهل الفن. بل ظهرت فى ذلك الحين مدرسة النقد المسرحى الوحيدة التى يمكن أن يكتب لها تاريخ ، مدرسة محمد عبد المجيد حلمى ومحمد التابعى الذى بدأ حياته الأدبية الحافلة ناقداً فنيًا فى ذلك الحين..

وإلى جانب الصحافة التقليدية التى كانت تخدم الاحتلال ـ مثل : المقطم والأهرام (فى تلك الحقبة من تاريخها) ـ قامت الصحف المصرية الصميمة المجاهدة التى أرست قواعد الفن الصحفى والنهضة الأدبية فى البلاد . ولا شك فى أن مؤسسات صحفية (مثل : كوب الشرق والجهاد والضياء وروزا اليوسف والسياسة الأسبوعية والرسالة والثقافة) كانت بعض ثمرات الثورة وروحها ، وبفضل هذه الروح تطورت دور صحفية قديمة ودخلت ميدان الكفاح الوطنى فخدمت القضية المصرية أجلَّ الخدمات ، وفى مقدمتها كانت جريدة الأهرام ودار الهلال.

● والخاصية الثالثة التى ميَّزت جيل الثورة هى الإيمان بالحرية والديمقراطية إيماناً حقيقيًا ، هو نتيجة حرمان المصرى أحقاباً طويلة من حريته وحقه فى حكم بلاده ، وحرمانه من شرف المساهمة فى العمل القومى . ومن هنا لا غرابة فى أن نجد الفترة التى تلت إعلان تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢م فترة صراع متصل فى سبيل الحرية والدستور والديمقراطية ، قام به الشعب ضد خصوم الحرية والدستور والديمقراطية ، وهم رجال الاحتلال والملك وأذنابهم من الانتهازيين الذين لم تمسَّهم روح الثورة من قريب أو بعيد. وفى أثناء هذا الصراع لكسب الدستور ظهرت عبقريات وطنية جليلة ، وشخصيات عرفت كيف تدافع عن حرية الشعب وحقوقه . ومن الظلم أن يقال إن الزعماء ما كانوا يطالبون بالدستور إلا ليصلوا إلى الحكم ، وأن الذين كانوا يهتفون للدستور فى الشوارع ما كانوا ليفهموه ، فالحق أن المخلصين كانوا كثيرين ، وأن الجماهير كانت تهتف للدستور طلباً للحرية.

ولقد بذل رجال الاحتلال والقصر جهوداً عنيفة لإضعاف إيمان الناس بالحرية والدستور ، وبلغ من وقاحة الاستعماريين البريطانيين أنهم كانوا يهددون بضرب الإسكندرية بقنابل الأسطول ، إذا لم يكفَّ البرلمان عن مناقشة قانون لا يرضيهم ، بل احتل الجنود الإنجليز جمارك الإسكندرية مرة . وما من برلمان انتُخب إلا وتعقَّبه الملك

بالحل والتعطيل ، وما من حكومة وطنية قامت إلا وتوالت عليها المطاردات والمضايقات، وأيسر ما كانوا يلجأون إليه إغراء بعض الوزراء بالاستقالة حتى يتصدع بنيان الوزارة القائمة.

وفى أثناء هذه الحرب الطاحنة ضعفَ كثيرون وتراجعوا ، وأفلس كثيرون أيضاً وضاعت أموالهم . ولم يضعف مد ثورة ١٩١٩م إلا عند عقد معاهدة ١٩٣٦م التى تعتبر تصفية لثورة ١٩١٩م من الناحية السياسية ، ولا غرابة ـ لهذا ـ فى أن مصريين جدداً بدأوا يعدُّون للثورة الجديدة من ذلك الحين.

● والخاصية الرابعة هى الشعور بالعزة القومية والكرامة المصرية ، شعوراً بلغ أحياناً حد المبالغة فى التمسك بالكرامة الشخصية ، ففى أثناء الثورة وفى أعقابها رفع المصرى رأسه ورفض قبول أىِّ شىء أحس بأنه يمسُّ كرامته وكرامة بلده ولو من بعيد ، ففى أثناء جولات المفاوضات المصرية الكثيرة ما كان المفاوض المصرى يقبل أىَّ قيد يمسُّ حرية بلاده وحقوقها. وكانت الأمة من وراء القادة كاملة الشعور بهذه العزة ، فما ظنت فى واحد منهم تهاوناً فى حقوقها إلا انصرفت عنه ، وما تنصرف عنه الأمة حتى يصبح نسياً منسياً أو موضع الزراية والسخرية.

وانتقل هذا الشعور إلى الأفراد ، فأصبحوا ـ هم الآخرون ـ ذوى حساسية شديدة بالكرامة الشخصية ؛ ولقد كانت هذه الخاصية خيراً ، ولكن الإسراف فيها أصبح مصدر متاعب ومصاعب شتَّى ، فكثر اختلاف الناس بعضهم مع بعض ، لمجرَّد تصور إهانة شخصية أو تصرُّف يؤوَّل على أنه إهانة مقصودة ، أو كلمة قيلت فى تبسُّط ودون التفات . والكثير من خلافات سعد وعدلى وبين رجال السياسة بعضهم وبعض يرجع إلى أسباب لا تُصدَّق ، من مثل إهمال الرد على برقية أو التقصير فى عزاء أو كلمة شديدة فى مقال ، مما جعل أهل هذا الجيل ـ على عظيم قدرهم ـ شيعاً وأحزاباً وخصومات وحزازات ضيَّعت على هذه الأمة خيراً كثيراً وعطَّلتها عن السير طويلاً..

وهناك خصائص أخرى يطول ذكرها وتفصيلها ، ولكنها كلها كانت عوامل وراء النهوض الكبير الذى حققته البلاد خلال العشرينيات والثلاثينيات . فمن هذه الخصائص التى لا يتسع المجال للكلام عنها هنا بتفصيل : الإيمان بالعلم واتجاه المصريين إلى طلبه ،

وتسابقهم فى تعليم أولادهم فى صورة تجعلنا نشعر بالإجلال حقاً نحو ألوف الأفندية والمزارعين والتجار الصغار ، الذين حرموا أنفسهم ـ حقيقة لا مجازًا ـ من لقمة العيش فى سبيل تربية أبنائهم ، وإيصالهم إلى الجامعة والمدارس العالية ، لا عن مجرد رغبة فى الوصول إلى الوظائف كما حدث فى فترات أخرى بعد ذلك ، بل عن إيمان حقيقى بالعلم . وأبطال مصر القوميُّون خلال هذه الفترة كانوا رجال علم وأدب وفن إلى جانب اهتماماتهم السياسية ، وسعد زغلول وعبد الخالق ثروت وطلعت حرب كانوا رجال علم وأدب وفن.

وقد جاهدت الأمة المصرية للنهوض من سبات القرون جهاداً طويلاً رائعاً ، واعترضت طريقها قوى شريرة كانت تصرُّ على إيقاف تقدُّمها والعودة بها إلى الوراء ، أولاها الاحتلال الإنجليزى ، وثانيتها القصر ، وثالثتها خُدَّام الاحتلال والقصر من المستوزرين وصنائعهم ، ورابعتها الدول الأجنبية التى كانت تساند الاحتلال وتصرُّ على التمسك بما كان يسمى إذ ذاك بالامتيازات الأجنبية ، وهى وصمة فى جبين الاحتلال والقصر والدول الأوربية جميعاً . وقد استنفد هذا الجهاد معظم قوى البلاد خلال العشرينيات والثلاثينيات ، وهى فترة تميزت بالصراع وأبطاله والجهاد ورجاله ، والعمل الكثير والخَلْق المتواصل فى كل ميدان ، وحفلت كذلك بالمآسى والآلام والتضحيات والأخطاء..

نحن على حق ـ إذن ـ عندما نتحدث عن جيل ثورة ١٩١٩م فنعتبره جيلاً مُنشئاً جاداً مجاهداً ، عرف كيف ينتقل بمصر من بلد اتفقت أوربا على اعتباره مزرعة ومستعمرة يديرها الإنجليز لحسابها ، إلى بلد مستقل ناهض يتقدم غيره من أمم إفريقيا وآسيا بمراحل واسعة فى كل ميدان..

وقد اختلفت مراتب أهل الجيل ما بين قادة وتابعين ، وما بين مبتكرين ومتابعين ، وما بين عباقرة ورجال مجدِّين ، ولكنهم جميعاً يكوِّنون موكباً رائعاً من الرجال الذين أنقذوا وطناً وشادوا حضارة ومجداً ، وكل رجل منهم جدير بأن يكتب له تاريخ وحده.

***